رَاجِي الفَلَاحِ

تَهْذِيبُ

حَادِي الأَرْوَاحِ إِلَى بِلَادِ الأَفْرَاحِ

للإمام ابن قيم الجوزية



أَعَدَّ التَهْذِيبَ

أَبُو عَبْدِ اللهِ؛ خُلْدُونُ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ نَغْوِي آل حَقَوِي

بسم الله الرحمن الرحيم

رَاجِي الفَلَاحِ
تهذيبُ
حادي الأرواح

{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]

مقدمةُ المُهَذِّب

إنَّ الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله مِن شرور أنفسنا ومِن سيئات أعمالنا، مَن يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعدُ؛ فإني كنتُ منذ زمن طويل -وإلى الآن- أتطلع إلى خدمة دين الله تعالى، وإلى أنْ يكون لي سبب إلى رضاه تعالى في حياتي وبعد مماتي[١]، ومِن ذلك أنَّ أكونَ أحدَ جنود الإسلام المدافعين عنه باليد واللسان.

---

١ كما في صحيح مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)).
وأنا أرجو اللهَ تعالى الكريمَ أنْ يجعلني مِن أهل العلم العاملين المنتفَع بهم؛ فإنَّ الدَّالَّ على الخير كفاعله؛ كما ثبت في الحديث.

وقد رأيتُ الاعتناءَ بموضوع هو مِن أهم المواضيع اليومَ وهو "ذِكْرُ وصْفِ الجنَّة"، ولكنْ على سبيل الاختصار غير المُخِلِّ إنْ شاء الله، وبالاعتماد على أصل علمي نافع مبارك وهو كتاب "حادي الأرواح" للإمام ابن القيم رحمه الله[١]، وقد دفعني لهذا التهذيب ضرورةُ تسهيل هذا المطلب على العامة ليسهل إلقاؤه ونشره بينهم، فاقتصرتُ فيه على الدليل المناسب مع بعض ما يلزم مِن جهة الوعظ اليسير، مبتعدًا عن الإطالة –وإنْ كانت نافعة طبعًا لطلاب العلم– إلَّا أنها تُخرج المادة عن سهولة طرحها وإلقائها بين العامة.

ولْيعلمِ القارئُ الكريمُ أنَّ الأصلَ في هذا التهذيب أنْ يكونَ الكلامُ كلُّه منقولًا مِن الكتاب الأصل[٢]، هذا وما كان مني على وجه التنويه فإني أضعه بين معترضتين أو في الحاشية، وأمَّا ما أردتُ إثراء الكتاب به؛ فإني أذكره في الحاشية في آخر الباب المناسب له.

١قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: "وهذا كتابٌ اجتهدتُ في جمعه وترتيبه وتفصيله وتبويبه، فهو للمحزون سلوةٌ، وللمشتاق إلى تلك العرائس جَلوةٌ، مُحَرِّكٌ للقلوب إلى أجلِّ مطلوب، وحادٍ للنفوس إلى مجاورة الملك القدوس، ممتعٌ لقارئه، مشوِّقٌ للناظر فيه، لا يسأمه الجليس ولا يَمَلُّه الأنيس، مشتمل مِن بدائع الفوائد وفرائد القلائد على ما لعل المجتهد في الطلب لا يظفر به فيما سواه مِن الكتب، مع تضمينه لجملة كثيرة مِن الأحاديث المرفوعات والآثار الموقوفات والأسرار المودعة في كثير مِن الآيات والنكت البديعات وإيضاح كثير مِن المشكلات والتنبيه على أصول مِن الأسماء والصفات". حادي الأرواح (١/ ١٢).

٢سوى الحديث الشريف؛ فإني إجمالًا أعيد نقلَه بلفظه مِن مصادره الأم.

وأخيرا أسألُ اللهَ تعالى إجابتي دعوةً كدعوة سيدنا إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

وكتبه:

أبو عبد الله؛ خلدون بن محمود بن نغوي آل حقوي[١]

١ أرحبُ بتلقي تعليقاتِ القراء الكرام على العنوان الإلكتروني: Naghwi@gmail.com.

▪ نُبَذٌ مِن مقدمة الإمام ابن القيم رحمه الله

"الحمدُ لله فاطرِ السماوات والأرض، جاعلِ الملائكة رسلًا، وباعثِ الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل؛ إِذْ لم يخلقهم عبثًا، ولم يتركهم سدًى، ولم يُغفلهم هملاً! بل خَلَقَهم لأمر عظيم، وهيأهم لخطب جسيم، وعمَّر لهم دارين، فهذه لِمَن أجاب الداعي ولم يبغِ سوى ربه الكريم بدلًا، وهذه لِمَن لم يجبْ دعوته، ولم يرفع بها رأسًا، ولم يعلق بها أملًا".

"والعجبُ وكلُّ العجب مِن غفلةِ مَن لحظاتُه معدودةٌ عليه، وكلُّ نَفَسٍ مِن أنفاسه لا قيمةَ له إذا ذهب لم يرجع إليه! فمطايا الليل والنهار تُسْرِعُ به ولا يتفكر إلى أين يحمل ويسار به أعظمَ مِن سير البريد، ولا يدري إلى أي الدارين يُنقل، فإذا نَزَلَ به الموتُ اشتد قلقُه لخراب ذاته وذهاب لذاته لا لما سَبَقَ مِن جناياته وسَلَفَ مِن تفريطه حيث لم يُقَدِّمْ لحياته! فإذا خطرتْ له خطرةٌ عارضةٌ لِمَا خُلِقَ له دفعَها باعتماده على العفو، وقال: قد أنبئنا أنه هو الغفور الرحيم، وكأنه لم يُنَبَّأْ أنَّ عذابَه هو العذاب الأليم[١]!

[١] في قوله تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} [الحجر: ٤٩، ٥٠].

ولَمَّا عَلِمَ الموفَّقون ما خُلقوا له وما أُريد بإيجادهم رفعوا رؤوسهم فإذا عَلَمُ الجنَّة قد رُفِعَ لهم، فشمَّروا إليه، وإذا صراطُها المستقيمُ قد وَضَحَ لهم فاستقاموا عليه، ورأوا مِن أعظم الغُبن بيعُ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلب بشر في أبدٍ لا يزول ولا ينفد بصبابة عيش إنما هو كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام مشوب بالنغص ممزوج بالغصص إنْ أضحك قليلًا أبكى كثيرًا، وإنْ سَرَّ يومًا أحزن شهورًا، آلامُه تزيد على لذَّاته، وأحزانُه أضعافُ مَسَرَّاته، أوله مخاوفُ وآخره متالف، فيا عجبًا مِن سفيهٍ في صورة حليم! ومعتوهٍ في مسلاخ عاقلٍ! آثَرَ الحظَّ الفاني الخسيسَ على الحظِّ الباقي النفيسِ! وباع جنةً عرْضُها السماوات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليَّات! ومساكنَ طيبةً في جنات عدن تجري مِن تحتها الأنهار بأعطانٍ ضيقةٍ آخرُها الخرابُ والبوارُ! وأبكارًا عُرُبًا أترابًا كأنهن الياقوتُ والمرجانُ بقذرات دنساتٍ سيئاتِ الأخلاق مسافحاتٍ أو متخذاتِ أخدان! وحورًا مقصوراتٍ في الخيام بخبيثاتٍ مُسَيَّبَاتٍ بين الأنام! وأنهارًا مِن خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين بشرابٍ نجسٍ مُذْهِبٍ للعقل مُفْسِدٍ للدنيا والدين! ولذةَ النظرِ إلى وجه العزيز الرحيم بالتمتع برؤية الوجهِ القبيح الذميم!

وسماعَ الخطابِ مِن الرحمن بسماع المعازف والغناء والألحان! والجلوسَ على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يومَ المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مَرِيد! ونداءَ المنادي: يا أهل الجنَّة؛ إنَّ لكم أنْ تَنعموا فلا تبأسوا، وتحيوا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا، وتشِبُّوا فلا تَهرموا بغناء المغنين!".

▪ الباب الأول: في بيان وجود الجنَّة الآن

"لم يزلْ أصحابُ رسول الله والتابعون وتابعوهم وأهل السُّنَّة والحديث قاطبةً وفقهاءُ الإسلام وأهلُ التصوف والزهدُ على اعتقاد ذلك وإثباته، مستندين في ذلك إلى نصوص الكتاب والسُّنَّة وما علم بالضرورة مِن أخبار الرسل كلهم مِن أولهم إلى آخرهم؛ فإنهم دعوا الأممَ إليها، وأخبروا بها إلى أنْ نبغتْ نابغةٌ[1] مِن القدرية والمعتزلة فأنكرتْ أنْ تكون مخلوقةً الآن! وقالت: بل الله ينشئها يومَ القيامة! وحَمَلَهم على ذلك أصلُهم الفاسدُ الذي وضعوا به شريعةً فيما يفعله الله! وأنه ينبغي له أنْ يفعل كذا، ولا ينبغي له أنْ يفعل كذا! وقاسوه على خلْقِه في أفعالهم! فهم مشبِّهةٌ في الأفعال، ودخل التجهمُ فيهم فصاروا مع ذلك معطلةً في الصفات، وقالوا: خَلْقُ الجنَّةِ قبلَ الجزاءِ عبثٌ؛ فإنها تصيرُ معطَّلة مُدَدًا متطاولةً ليس فيها سكانها! قالوا: ومِن المعلوم أنَّ ملِكًا لو أتخذ دارًا وأعدَّ فيها ألوانَ الأطعمةِ والآلاتِ والمصالحِ، وعَطَّلَها مِن الناس ولم يمكِّنْهم مِن دخولها قرونًا متطاولةً؛ لم يكن ما فعله واقعًا على وجه الحكمة! ووَجَدَ العقلاءُ سبيلًا إلى الاعتراض عليه! فحَجَروا

---

[1] " نَبَغَ الشيءُ مِن الشيء -كمنع، ونصر وضرب- أي: ظهر، ومنه: نبغتْ لنا منك أمورٌ، أي: ظهرتْ وفَشَتْ". تاج العروس (٢٢/ ٥٧٤).

على الربِّ تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة، وشَبَّهوا أفعالَه بأفعالهم، وردُّوا مِن النصوص ما خالف هذه الشريعةَ الباطلةَ التي وضعوها للربِّ! أو حَرَّفُوها عن مواضعها، وضلَّلوا وبدَّعوا مَن خالفَهم فيها، والتزموا فيها لوازمَ أضحكوا عليهم فيها العقلاءَ، ولهذا يذكرُ السلفُ في عقائدهم أنَّ الجنَّةَ والنارَ مخلوقتان، ويَذكرُ مَن صَنَّفَ في المقالات أنَّ هذه مقالةُ أهلِ السُّنَّة والحديث قاطبةً لا يختلفون فيها.

قال أبو الحسن الأشعريُّ في كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: "جملةُ ما عليه أصحابُ الحديث وأهلُ السُّنَّة: الإقرارُ بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء مِن عند الله، وما رواه الثقاتُ عن رسول الله، لا يَرُدُّون مِن ذلك شيئًا" إلى أنْ وَصَلَ إلى قوله رحمه الله: "ويُقِرُّون أنَّ الجنَّةَ والنارَ مخلوقتان".

وقد دلَّ على ذلك مِن القرآن قولُه تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: ١٣ - ١٥].

وقد رأى النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سدرةَ المنتهى، ورأى عندها جنةَ المأوى، كما في الصحيحين مِن حديث أنسٍ في قصة الإسراء وفي آخره:

((ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى نَأْتِيَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ؟ قَالَ: ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ؛ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤَ))١.

وفي الصحيحين مِن حديث عبد الله بن عمر؛ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ))٢.

وفي المسند وصحيح الحاكم وابن حبان وغيرهم مِن حديث البراء بن عازب، قال: خَرَجْنا مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في جنازةِ رجلٍ مِن الأنصارِ، فذَكَرَ الحديثَ بطوله وفيه ((فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَرُوهُ مَنْزِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ: وَيُمَدُّ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَوْحُ الْجَنَّةِ وَرِيحُهَا " وذَكَرَ الحديثَ٣.

وفي الموطأ والسُّنَنِ مِن حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ

١صحيح مسلم (١٦٣).
الجَنَابِذ: "القِباب، واحدتها جَنْبَذَة". شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٢).
٢صحيح البخاري (١٣٧٩).
٣صحيح. المستدرك (١٠٧). صحيح الجامع (١٦٧٦).

اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ))١، وهذا صريحٌ في دخول الرُّوح الجنَّةَ قبل يومِ القيامة.

وفي صحيح مسلم٢ والسُّنَنِ والمسندِ مِن حديث أبي هريرة؛ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا))٣.

"فإنْ قيلَ: فما منعكم عن الاحتجاج على وجودها الآن بقصة آدمَ ودخوله

١صحيح. موطأ مالك ت عبد الباقي (١/ ٢٤٠). الصحيحة (٩٩٥).
٢لم أعثر عليه في صحيح مسلم!
٣صحيح. النسائي (٣٧٦٣). صحيح الجامع (٥٢١٠).

الجنَّةَ وإخراجه منها بأكله مِن الشجرة؛ والاستدلالُ بها في غاية الظهور؟!

قيل: الاستدلالُ بذلك -وإنْ كان عندَ العامةِ في غاية الظهور- فهو في غاية الغموض، لاختلاف الناس في الجنَّة التي أُسْكِنها آدمُ؛ هل كانت جنةَ الخلدِ التي يدخلها المؤمنون يومَ القيامة أو كانت جنةً في الأرض في شَرَفِها؟

ونحن نذكرُ مَن قال بهذا ومَن قال بهذا، وما احتجَّ به كلُّ فريق على قولهم، وما ردَّ به الفريقُ الآخرُ عليهم -بحول الله وقوته-".

▪ الباب الثاني: في اختلاف الناس في الجنَّة التي أسكنها آدم عليه الصلاة والسلام وأهبط منها؛ هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى غيرها في موضع عال من الأرض؟

اختلف الناسُ في الجنَّة –التي أُسْكِنَهَا آدمُ ثم اهبط منها– على قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثاني: أنها جنة أعدها الله تعالى لهما، وجعلها ابتلاء، وليست هي جنة الخلد التي جعلها دار جزاء[1].

ومَن قال بهذا؛ اختلفوا فيه قولين:

أحدهما: أنها في السماء، لأنه أهبطهما منها.

الثاني: أنها في الأرض، لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها

---

[1] "والقول بأنها جنة في الأرض ليست جنة الخلد قول أبي حنيفة وأصحابه". حادي الأرواح (١/ ٣٣).
وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "والجنة -التي أُسكنها آدم وزوجته- عند سلف الأمة وأهل السُّنَّة والجماعة: هي جنة الخلد. ومَن قال: إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك! فهو مِن المتفلسفة والملحدين، أو مِن إخوانهم المتكلمين المبتدعين؛ فإنَّ هذا يقوله مَن يقوله مِن المتفلسفة والمعتزلة، والكتاب والسُّنَّة يردان هذا القول، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول". مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤٧).

دون غيرها مِن الثمار.

ونحن نسوق حُجَجَ الفريقين إنْ شاء الله تعالى، ونبين لهم ما لهم وما عليهم.

▪ الباب الثالث: في سياق حجج مَنِ اختار أنها جنة الخلد التي يدخلها الناس يوم القيامة

[وهي على سبيل الاختصار والإشارة تتلخص في]:

١- حديث مسلم المرفوع ((يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا؛ اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ)) وذكر الحديث[١].

قالوا: وهذا يدل على أنَّ الجنَّة التي أُخرج منها هي بعينها التي يُطلب منه أنْ يَستفتحها.

٢- في الصحيحين حديث احتجاج آدم وموسى، وقول موسى: ((يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ))[٢].

ولو كانت في الأرض فهم قد خرجوا مِن بساتين فلم يخرجوا مِن الجنَّة!

وكذلك قولُ آدم للمؤمنين يوم القيامة: ((وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ))؟! وخطيئته لم تخرجهم مِن جنات الدنيا!

١صحيح مسلم (٣٢٩) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.
٢صحيح البخاري (٦٦١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٣- في سورة البقرة: {وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة: ٣٥، ٣٦].

فهذا يدلَّ على أنَّ هبوطهم كان مِن الجنَّة إلى الأرض مِن وجهين، أحدهما: مِن لفظة "اهبطوا" فإنه نزول مِن علو إلى سفل، والثاني "ولكم في الأرض مستقر" عقب قوله: "اهبطوا" فدلَّ على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض، ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ٢٥] ولو كانت الجنَّة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

٤- قد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلَّا في جنة الخلد، فقال: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [طه: ١١٨، ١١٩] وهذا لا يكون في الدنيا أصلًا، فإنَّ الرجلَ -ولو كان في أطيب منازلها- لا بد أنْ يعرض له شيء مِن ذلك.

٥- لو كانت تلك الجنَّة في الدنيا؛ لعَلِمَ آدمُ كَذِبَ إبليس في قوله: {هَلْ

أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: ١٢٠]، فإنَّ آدمَ كان يَعْلَمُ أنَّ الدنيا منقضيةٌ فانيةٌ وأنَّ مُلْكَها يَبلى.

٦- الجنَّة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ} [البقرة: ٣٥] ونظائره، ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلَّا جنة الخلد التي وعد الرحمن عبادَه بالغيب، فقد صار هذا الاسم عَلَمًا عليها بالغلبة كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها، فحيث ورد لفظُها مُعَرَّفًا انصرف إلى الجنَّة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين، وأمَّا إنْ أُريد به جنةٌ غيرها؛ فإنها تجيء منكرة أو مقيدة بالإضافة أو مقيدة مِن السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض.

فهذا بعض ما احتجَّ به القائلون بأنها جنة الخلد ونحن نسوق حجج الآخرين.

▪ الباب الرابع: في سياق حجج الطائفة التي قالت: ليست جنة الخلد! وإنما هي جنة في الأرض

[وهي أيضًا على سبيل الاختصار والإشارة تتلخص في]:

١- قد أخبر الله سبحانه على لسان جميع رسله أنَّ جنةَ الخلد أنما يكون الدخول إليها يوم القيامة ولم يأت زمن دخولها بعدُ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه بصفاتها؛ ومحال أنْ يَصف الله سبحانه وتعالى شيئا بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفه بها!

قالوا: فوجدنا الله تعالى وصف الجنَّة التي أعدت للمتقين بأنها:

دار المقامة؛ فمن دخلها أقام بها، ولم يُقِم آدمُ بالجنَّة التي دخلها!

ووصفها بأنها جنة الخلد، وآدم لم يخلد فيها!

ووصفها بأنها دار ثواب وجزاء لا دار تكليف وأمر ونهي!

ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة لا دار ابتلاء وامتحان، وقد ابُتلي آدم فيها بأعظم الابتلاء!

ووصفها بأنها دار لا يُعصى الله فيها أبدًا، وقد عصى آدم ربه في جنته التي دخلها!

ووصفها بأنها ليست دار خوف ولا حزن، وقد حصل للأبوين فيها مِن الخوف والحزن ما حصل!

وسماها دار السلام، ولم يَسْلَم فيها الأبوان مِن الفتنة!

وقال: {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} [الحجر: ٤٨] وقد نَدَّ فيها آدمُ هاربًا فارًا، وطفق يخصف ورق الجنَّة على نفسه، وهذا النصب بعينه.

وأخبر أنه لا لغو فيها ولا تأثيم، وقد سمع فيها آدم لغو إبليس وإثمه!

وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كِذَّاب، وقد سمع فيها آدمُ عليه السلام كذبَ إبليس!

٢- قال تعالى للملائكة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠] ولم يقل: إني جاعل في جنة المأوى! فقالت الملائكة: {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} [البقرة: ٣٠] ومحال أنْ يكون هذا في جنة المأوى!

٣- أخبر الله تعالى عن إبليس إنه قال لآدم: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: ١٢٠]، فإنْ كان الله سبحانه وتعالى قد أَسكن آدمَ جنةَ الخلد والملك الذي لا يَبلى؛ فكيف لم يَرُدَّ عليه ويقل له: كيف تدلني على

شيء أنا فيه وقد أُعطيتُه!

٤- قالوا: ولو كان أدم أُسكن جنة الخلد -وهي دار القدس التي لا يسكنها إلَّا طاهر مقدس- فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم عليه السلام ووسوس له؟! وأيضا فبعد أنْ قيل له: {فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا} [الأعراف: ١٣] أيفسح له أنْ يَرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط عليه والإبعاد له والزجر والطرد بعتوه واستكباره؟!

٥- حديث الترمذي الذي فيه أنَّ اللهَ سبحانه لَمَّا خَلَقَه أَعْلَمَه أنَّ لعمره أجلًا ينتهي إليه، وأنه لم يخلقه للبقاء[١]! فهذا صريح في أنَّ آدمَ عليه السلام لم

[١] والحديث بلفظه: ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا آدَمُ. اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ المَلَائِكَةِ -إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ- فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالُوا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ -وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ-: اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، قَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي -وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ-، ثُمَّ بَسَطَهَا؛ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ؛ مَا هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ -أَوْ مِنْ أَضْوَئِهِمْ- قَالَ: يَا رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. قَالَ: يَا رَبِّ زِدْهُ فِي عُمْرِهِ. قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كُتِبَ لَهُ. قَالَ: أَيْ رَبِّ؛ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. قَالَ: ثُمَّ أُسْكِنَ الجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أُهْبِطَ مِنْهَا، فَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ، قَالَ: فَأَتَاهُ مَلَكُ المَوْتِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: قَدْ عَجَّلْتَ! قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ. قَالَ: بَلَى وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لِابْنِكِ دَاوُدَ سِتِّينَ سَنَةً، فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ. قَالَ: فَمِنْ يَوْمِئِذٍ أُمِرَ بِالكِتَابِ وَالشُّهُودِ)). صحيح. الترمذي (٣٣٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٥٢٠٨).

يخلق في دار البقاء التي لا يموت مَن دخلها، وإنما خلق في دار الفناء التي جعل الله تعالى لها ولسكانها أجلًا معلومًا وفيها أُسْكِن.

٦- أنَّ الجنَّةَ ليست دار تكليف؛ وقد كلف الله سبحانه الأبوين بينهما عن الأكل مِن الشجرة، فدلَّ على أنها دار تكليف لا جزاء وخلد.

▪ الباب الخامس: في جواب أرباب هذا القول لأصحاب القول الأول

[وهي أيضًا على سبيل الاختصار والإشارة]:

١- أمَّا قولكم: إنَّ قولنا هو الذي فَطَرَ الله عليه عباده بحيث لا يعرفون سواه! فالمسألة سمعية، لا تعرف إلَّا بأخبار الرسل، ونحن وأنتما إنما تلقينا هذا مِن القرآن لا مِن المعقول ولا مِن الفطرة، فالمتَّبَع فيه ما دلَّ عليه كتابُ الله وسُنَّةُ رسوله، ونحن نطالبكم بصاحب واحد أو تابع أو أثر صحيح أو حسن بأنها جنة الخلد التي أعدها الله للمؤمنين بعينها ولن تجدوا إلى ذلك سبيلًا، وقد أوجدناكم مِن كلام السلف ما يدل على خلافه، ولكنْ لَمَّا وردتِ الجنَّةُ مطلقةً في هذه القصة ووافقت اسمَ الجنَّة التي أعدها الله لعباده في إطلاقها وبعض أوصافها فذهب كثيرٌ مِن الأوهام إلى أنها بعينها.

٢- وأمَّا استدلالكم بحديث أبي هريرة رضي الله عنه وقول آدم "وهل أخرجكم منها إلَّا خطيئةُ أبيكم" فإنما يدل على تأخر آدم عليه السلام عن الاستفتاح للخطيئة التي قد تقدمت منه في دار الدنيا، وأنه بسبب تلك الخطيئة حصل له الخروجُ مِن الجنَّة.

٣- وأمَّا استدلالكم بقوله تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا} عقيب إخراجهم من الجنَّة؛ فلفظ الهبوط لا يستلزم النزول مِن السماء إلى الأرض! غايته أنْ يدلَّ على النزول مِن مكان عالٍ إلى أسفلَ منه، وهذا غير منكر؛ فإنها كانت جنة في أعلى الأرض فأهبطوا منها إلى الأرض.

وقد بيَّنا أنَّ الأمرَ كان لآدم عليه السلام وزوجه وعدوهما، فلو كانت الجنَّة في السماء لَمَا كان عدوهما متمكنًا منها بعد إهباطه الأول لَمَّا أبى السجودَ لآدم عليه السلام!

٤- وأمَّا قوله تعالى {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} فهذا لا يدلُّ على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض! فإنَّ الأرضَ اسمُ جنس وكانوا في أعلاها وأطيبها وأفضلها في محل لا يدركهم فيه جوع ولا عرى ولا ظمأ ولا ضحى؛ فاهبطوا إلى أرض يَعرض فيها ذلك كله.

٥- وأمَّا قولكم: إنه سبحانه وتعالى وصفها بصفات لا تكون في الدنيا!

فجوابه: إنَّ تلك الصفاتِ لا تكون في الأرض التي أُهبطوا إليها، فمِن أين لكم أنها لا تكون في الأرض التي أهبطوا منها؟!

٦- وأمَّا قولكم: إنَّ آدمَ عليه السلام كان يعلم أنَّ الدنيا منقضيةٌ فانيةٌ؛ فلو

كانت الجنَّة فيها لعلم كذب إبليس في قوله: {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ} ! فجوابه: إنَّ اللفظَ أنما يدل على الخلد وهو أعم مِن الدوام الذي انقطاع له؛ فإنه في اللغة المكث الطويل، ومكث كل شيء بحسبه.

٧- وأمَّا قولكم: إنَّ الجنَّةَ وردتْ معرفةً باللام التي للعهد فتنصرف إلى جنة الخلد! فقد وردت معرفة باللام غير مراد بها جنة الخلد قطعًا! كقوله تعالى: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} [القلم: ١٧] وقولكم: إنَّ السياقَ ها هنا دلَّ على أنها جنة في الأرض! قلنا: والأدلة التي ذكرناها دلت على أنَّ جنةَ آدم عليه السلام في الأرض؛ فلذلك صِرنا إلى موجبها إذ لا يجوز تعطيلُ دلالة الدليل الصحيح.

▪ الباب السادس في جواب مَن زعم أنها جنة الخلد عمَّا احتج به منازعوهم

[وهي أيضًا على سبيل الاختصار والإشارة]:

١- قالوا: أمَّا قولكم: إنَّ اللهَ سبحانه أخبر أنَّ جنة الخلد إنما يقع الدخول إليها يوم القيامة ولم يأت زمن دخولها بعدُ! فهذا حقٌّ في الدخول المطلق الذي هو دخول استقرار ودوام، وأمَّا الدخول العارض فيقع قبل يوم القيامة، وقد دخل النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الجنَّةَ ليلة الإسراء، وأرواحُ المؤمنين والشهداءُ في البرزخ في الجنَّة، وهذا غير الدخول الذي أخبر الله به في يوم القيامة، فدخول الخلود إنما يكون يوم القيامة، فمِن أين لكم أنَّ مطلقَ الدخول لا يكون في الدنيا؟! وبهذا خرج الجوابُ عن استدلالكم بكونها دار المقامة ودار الخلد.

٢- قالوا: وأمَّا احتجاجُكم بسائر الوجوه التي ذكرتموها في الجنَّة وأنها لم توجد في جنة آدم عليه السلام مِن العري والنصب والحزن واللغو والكذب وغيرها؛ فهذا كلُّه حق لا ننكره نحن ولا أحد مِن أهل الإسلام، ولكن هذا إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة كما يدل عليه سياق الآيات كلها، فإنَّ نفيَ ذلك

مقرونٌ بدخول المؤمنين إياها، وهذا لا ينفي أنْ يكون فيها بين أبوي الثقلين ما حكاه الله سبحانه وتعالى من ذلك ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إياها إلى ما أخبر الله عنها فلا تنافي بين الأمرين.

٣- وأمَّا قولكم: إنها دار جزاء وثواب لا دار تكليف؛ وقد كلف الله سبحانه آدم بالنهي عن الأكل مِن تلك الشجرة؛ فدلَّ على أنَّ تلك الجنَّة دار تكليف لا دار خلود! فجوابه مِن وجهين:

أحدهما: أنه إنما تمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنين يوم القيامة؛ فحينئذ ينقطع التكليف، وأمَّا وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل على امتناعه البتة، كيف وقد ثبت عن النَّبِي صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: ((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ))[١] الحديث.

الوجه الثاني: أنَّ التكليفَ فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا مِن الصيام والصلاة والجهاد ونحوها، وإنما كان حَجرًا عليهما في شجرة واحدة مِن جملة أشجارها إمَّا واحدة بالعين أو بالنوع وهذا القدر لا يَمتنع وقوعُه في دار الخلد.

١صحيح البخاري (٣٢٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

٤- وأمَّا استدلالكم بقصة وسوسة إبليس له بعد إهباطه وإخراجه مِن السماء؛ فلعمر الله إنه لَمِن أقوى الأدلة وأظهرها على صحة قولكم، ولكنْ لا يَمتنع أنْ يَصعد إلى هنالك صعودًا عارضًا لتمام الابتلاء والامتحان الذي قدره الله تعالى وقدر أسبابه وإنْ لم يكن ذلك المكان مقعدًا له مستقرًا كما كان، وقد أخبر اللهُ سبحانه عن الشياطين أنهم كانوا قبل مبعث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يَقعدون مِن السماء مقاعد للسمع فيستمعون الشيء مِن الوحي، وهذا صعود إلى هناك ولكنه صعود عارض لا يستقرون في المكان الذي يصعدون إليه مع قوله تعالى: {اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: ٣٦] فلا تنافي بين هذا الصعود وبين الأمر بالهبوط، فهذا محتمل. والله أعلم.

٥- وأمَّا استدلالكم بأنَّ اللهَ سبحانه أعْلَمَ آدم عليه السلام مقدارَ أجله وما ذكرتم مِن الحديث وتقرير الدلالة منه؛ فجوابه أنَّ إعلامه بذلك لا ينافي إدخاله جنةَ الخلد وإسكانه فيها مدة، وأمَّا إخباره سبحانه أنَّ داخلَها لا يموت وإنه لا يَخرج منها؛ فهذا يوم القيامة.

٦- وأمَّا احتجاجكم بكونه خُلِقَ مِن الأرض؛ فلا ريب في ذلك، ولكنْ من

أين لكم أنه كَمُلَ خلْقُه فيها؟! وفي قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٣١ – ٣٣] أنه كان معهم في السماء حيث أنبأهم بتلك الأسماء، وإلَّا فهم لم ينزلوا كلهم إلى الأرض حتى سمعوا منه ذلك. ولو كان خلْقُه قد كَمُلَ في الأرض لم يَمتنع أنْ يُصْعِدَه سبحانه الى السماء لأمر دَبَّرَه وقَدَّرَه ثم يُعيده إلى الأرض.

▪ الباب السابع: في ذِكْرِ شُبَهِ مَن زعم أنَّ الجنَّة لم تُخلق بعدُ

١- قالوا: لو كانت الجنَّة مخلوقة الآن لوجب اضطرارًا أنْ تفنى يوم القيامة، وأنْ يَهلك كلُّ ما فيها ويموت، لقوله تعالى {هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨] و {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ} [آل عمران: ١٨٥] فتموت الحور العين التي فيها والولدان، وقد أخبر سبحانه أنَّ الدارَ دارُ خلود، ومَن فيها مخلدون لا يموتون فيها، وخَبَرُه سبحانه لا يجوز عليه خُلْفٌ ولا نسخ.

٢- حديث البزار: ((مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ))[1]، قالوا: فلو كانت الجنَّة مخلوقة مفروغًا منها لم يكن لهذا الغرس معنًى! وهذه جملة مركبة مِن شرط وجزاء تقتضي وقوع الجزاء بعد الشرط.

---

[1] صحيح. البزار (٢٤٦٨) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الترغيب والترهيب (١٥٣٩).

▪ الباب الثامن: في الجواب عمَّا احتجتْ به هذه الطائفة

١- قد تقدم في الباب الأول مِن ذِكْرِ الأدلة الدالة على وجود الجنَّة الآن ما فيه كفايةٌ.

٢- قولكم: إنَّ الجنَّةَ لم تُخلق بعدُ! أتريدون أنها الآن عدمٌ محضٌ لم تدخل إلى الوجود بعدُ؟ بل هي بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس مِن القبور! فهذا قول باطل، يَرُدُّه المعلوم بالضرورة مِن الأحاديث الصريحة الصحيحة التي تقدم بعضُها وسيأتي بعضُها، وهذا قول لم يقله أحد مِن السلف ولا أهل السُّنَّة، وهو باطل قطعًا، أم تريدون أنها لم تُخلق بكمالها وجميعِ ما أَعَدَّ اللهُ فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أَحدثَ اللهُ فيها عند دخولهم أمورًا أخر؟ فهذا حق لا يمكن ردُّه، وأدلتكم هذه إنما دلت على هذا القدر، وذلك الحديث صريح في أنَّ أرضَها مخلوقةٌ وأنَّ الذِّكْرَ يُنْشِئُ الله سبحانه لقائله منه غراسًا في تلك الأرض، وكذا بناء البيوت فيها بالأعمال المذكورة.

٣- وأمَّا احتجاجكم بقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَه} فإنما أتيتم مِن عدم فهمكم معنى الآية.

قال البخاري في صحيحه: "{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨]: "إلَّا مُلْكُه، ويقال: إلَّا ما أُريد به وجهُ الله"١.

وقال الإمام أحمد: "فإنِ احتجَّ مبتدع زنديق بقول الله تبارك وتعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨] وبنحو هذا؛ فقل له: كلُّ شيء ما كَتَبَ الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنَّة والنار خُلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما مِن الآخرة لا مِن الدنيا، والحور العين لا يَمُتْن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدًا، لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى خلقهن للبقاء لا للفناء ولم يكتب عليهن الموت، فمَن قال بخلاف ذلك فهو مبتدع مخالف وقد ضلَّ عن سواء السبيل "٢.

١البخاري (٦/ ١١٢).
وفي العبارة كلام من جهة لفظها ومعناها، ولكن ليس هذا موضعه.
٢مسائل حرب الكرماني -قسم كتاب النكاح إلى آخر الكتاب- (٣/ ٩٧٢).

▪ الباب التاسع: في ذِكْرِ عدد أبواب الجنَّة

في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله قال: ((فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ، لاَ يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ))١.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: ((مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ٢، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ))٣.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوَضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا

١صحيح البخاري (٣٢٥٧).
٢ "أي: ليس ضرورةٌ واحتياجٌ على مَن دُعِي مِن باب واحد مِن تلك الأبواب إنْ لم يُدْعَ مِن سائرها! لحصول المقصود وهو دخولُ الجنَّة". تحفة الأحوذي (١٠/ ١١٠).
٣صحيحي البخاري (١٨٩٧).

إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ))[١].

وعن عتبة بن عبد السلمي قال: سمعت رسول الله يقول: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ؛ إِلَّا تَلَقَّوْهُ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ دَخَلَ))[٢].

وقد جاء في وصف هذه الأبواب ملاحظاتٌ:

١- تأملْ قولَه تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: ٧٣] بواو العطف قبل ذكر فتح الابواب، هذا في مقابل حذْفِها في صفة النار {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} [الزمر: ٧١]، وأبرزُ ما قيل في هذا أنَّ الجوابَ محذوفٌ[٣]، وقولُه: "وفتحت أبوابها" عطفٌ على قوله "جاءوها"، والسِّرُّ في حذف الجواب في آية أهل الجنَّة وذِكْرِه في آية أهل النار أنَّ هذا أبلغُ في الموضعين، فإنَّ الملائكةَ تسوق أهلَ النار إليها -

---

١صحيح مسلم (٢٣٤).
٢حسن. ابن ماجه (١٦٠٤). صحيح الجامع (٥٧٧٢).
٣جواب "إذا جاءوها".

وأبوابُها مغلقةٌ- حتى إذا وصلوا إليها فتحتْ في وجوههم ففجأهم العذابُ بغتة، فحين انتهوا إليها فتحتْ أبوابُها بلا مهلة، فإنَّ هذا شأنُ الجزاء المرتب على الشرط أنْ يكون عقيبَه؛ فإنها دارُ الإهانة والخزي فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أنْ يمكنوهم مِن الدخول، وأمَّا الجنَّةُ فإنها دارُ الله ودارُ كرامته ومحلُّ خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابَها مغلقة فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أنْ يفتحها لهم ويستشفعون إليه بأولي العزم مِن رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالةُ على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم فيقول: "أنا لها"، فيأتي إلى تحت العرش ويخرُّ ساجدًا لربه فيدعه ما شاء الله أنْ يَدَعَه ثم يأذن له في رفع رأسه وأنْ يسأل حاجته فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها، فيشفعه ويفتحها تعظيمًا لخطرها وإظهارًا لمنزلة رسوله وكرامته عليه.

٢- تأملْ قولَه سبحانه: {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} [ص: ٥٠، ٥١] كيف تجد تحته معنى بديعًا وهو أنهم إذا دخلوا الجنَّة لم تغلق أبوابُها عليهم، بل تبقى مفتَّحةً كما هي، وأمَّا النار؛ فإذا دخلها أهلُها أُغلقتْ عليهم أبوابُها، كما قال تعالى {إِنَّهَا

عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ} [الهمزة: ٨] أي مُطْبقة، ومنه سُمِّيَ البابُ وصيدًا، وهي مؤصدة في عمد ممددة، قد جُعلتْ العمد ممسكةً للأبواب مِن خلْفِها كالحجر العظيم الذي يُجعل خلف الباب.

وفي تفتيح الأبواب لهم إشارةٌ إلى تصرُّفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم في الجنَّة حيث شاءوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف مِن ربهم، ودخول ما يَسُرُّهم عليهم كلَّ وقت، وأيضًا إشارة إلى أنها دار أمْنٍ لا يحتاجون فيها إلى غلْقِ الأبواب كما كانوا يَحتاجون إلى ذلك في الدنيا.

الباب العاشر: في ذِكْرِ سَعة أبوابها

عن أبي هريرة مرفوعًا في حديث الشفاعة الطويل ((إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ: كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ -أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى-)) متفق على صحته[1].

وعن خالد بن عمير العدوي، قال: خطبنا عُتبةُ بن غزوان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ؛ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا! وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ. وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ

---

[1] صحيح البخاري (٤٧٢١).

الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ؛ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا، فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا))١، فهذا موقوف والذي قبله مرفوع، فإنْ كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو الذاكرُ له كان هذا ما بين باب مِن أبوابها، ولعله الباب الأعظم، وإنْ كان الذاكرُ لهم ذلك غيرَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم يُقَدَّمْ على حديث أبي هريرة المتقدم٢.

١صحيح مسلم (٢٩٦٧).
قوله: (آذنت): أعلمتْ، و(الصُرم): الانقطاع والذهاب، و(حَذَّاء): مسرعة الانقطاع، و(الصُبابة): البقية اليسيرة مِن الشراب تبقى في أسفل الإناء، و(يتصابها): يشربها، و(الكظيظ): الممتلئ. يُنظر: شرح النووي على مسلم (١٨/ ١٠٢).
٢وسيأتي في الباب التالي جواب أحسن مِن هذا.

▪ الباب الحادي عشر: في صفة أبوابها، وأنها ذات حِلَق

عن الحسن في قوله تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ} [ص: ٥٠] قال: "أبوابٌ تُكَلَّمُ، فَتُكَلَّمُ: انفتحي، انغلقي"١.

ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا في حديث الشفاعة الطويل: ((فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ فَيَفْتَحُونَ لِي، وَيُرَحِّبُونَ بِي))٢، وهذا صريح في أنها حلْقةٌ حِسِّيَّة تُحرك وتقعقع.

ولَمَّا كانتِ الجناتُ درجاتٍ بعضُها فوق بعضٍ كانت أبوابها كذلك، وباب الجنَّة العالية فوق باب الجنَّة التي تحتها، وكلما عَلَتِ الجنَّةُ اتسعتْ، فعاليها أوسعُ مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنَّة، ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب؛ فإنَّ أبوابَها بعضُها أعلى مِن بعض.

١تفسير الطبري (٢١/ ٢٢٢).
وفيه: "فإنْ قال لنا قائلٌ: وما في قوله: {مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبْوَابُ} مِن فائدةِ خبرٍ حتى ذَكَرَ ذلك؟ قيل: فإنَّ الفائدةَ في ذلك إخبارُ الله تعالى عنها أنَّ أبوابها تفتح لهم بغير فتْحِ سكانها إياها بمعاناة بيد ولا جارحة، ولكنْ بالأمر فيما ذُكر".
٢صحيح. الترمذي (٣١٤٨). صحيح الجامع (١٤٥٩).

▪ الباب الثاني عشر: في ذِكْر مسافة ما بين الباب والباب

روي عند الطبراني وأحمد مِن حديث لَقِيط بن عامر أنه قال: (فَمَا الجَنَّةُ وَالنَّارُ؟ قال: (لَعَمْرُ إِلَهِكَ؛ إِنَّ لِلنَّارِ لَسَبْعَةَ أَبْوَابٍ، مَا مِنْهُنَّ بَابَانِ إِلَّا يَسِيرُ الرَّاكِبُ بَيْنَهُمَا سَبْعِينَ عَامًا))[١].

١ضعيف. أحمد (١٦٢٠٦). ظلال الجنَّة (٦٣٦).

▪ الباب الثالث عشر: في مكان الجنَّة وأين هي؟

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: ١٣ - ١٥]، وقد ثبت أنَّ سدرة المنتهى فوق السماء، وسُميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل مِن عند الله فيُقبض منها، وما يصعد إليه فيُقبض منها.

وقال تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} [الذاريات: ٢٢] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: "الجنَّةُ في السماء، وما توعدون مِن خير أو شرٍّ"١، وكذلك تلقاه الناسُ عنه.

وقد ذكر ابنُ المنذر في تفسيره وغيرُه أيضًا عن مجاهد قال: "هو الجنَّةُ والنارُ"! وهذا يحتاج إلى تفسير؛ فإنَّ النارَ في أسفل السافلين ليست في السماء! ومعنى هذا: ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه، وقاله أبو صالح عن ابن عباس: "الخير والشر كلاهما يأتي مِن السماء"٢، وعلى هذا؛ فالمعنى أسباب الجنَّة والنار بقَدَرٍ ثابت في السماء مِن عندِ الله.

وقد ثبت في الصحيحين عنه أنه قال: "الجَنَّةُ مِائةُ دَرَجَةٍ، مَا بَينَ كُلِّ دَرَجَتَين

١تفسير الطبري (٢٢/ ٤٢١).
٢زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٦٩).

كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ"١، وهذا يدلُّ على أنها في غاية العلو والارتفاع والله أعلم، والحديث له لفظان؛ هذا أحدهما، والثاني "إنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَينَ كُلِّ دَرَجَتَين كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؛ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ"، وشيخُنا يُرَجِّحُ هذا اللفظَ، وهو لا ينفي أنْ يكونَ درجُ الجنَّةِ أكبرَ مِن ذلك! ونظيرُ هذا قولُه في الحديث الصحيح ((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ؛ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا؛ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ))٢ أي مِن جملة أسمائه هذا القدْرُ؛ فيكون الكلامُ جملة واحدة في الموضعين، ويدلَّ على صحة هذا أنَّ منزلةَ نبيِّنا فوق هذا كله في درجة في الجنَّة ليس فوقها درجة؛ وتلك المائة ينالها آحادُ أمته بالجهاد!

والجنَّةُ مُقَبَّبَةٌ، أعلاها وأوسعها ووسطها هو الفردوسُ، وسقفه العرش، كما قال في الحديث الصحيح ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ؛ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ))٣.

فإنْ قيل: فالجنَّةُ جميعُها تحت العرش، والعرشُ سقفها؛ فإنَّ الكرسيَ وَسِعَ

١صحيح البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بنحوه.
٢صحيح البخاري (٢٧٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
٣صحيح البخاري (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

السمواتِ والأرضَ؛ والعرشُ أكبرُ منه! قيل: لَمَّا كان العرشُ أقربَ إلى الفردوس مما دونه مِن الجنات بحيث لا جنة فوقه دون العرش؛ كان سقفًا له دون ما تحته مِن الجنات.

▪ الباب الرابع عشر: في مفتاح الجنَّة

قيل لِوَهْب بن مُنبِّه[١]: "أَلَيْسَ -لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ- مِفْتَاحُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ؛ فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ"[٢].

وعن يزيد بن شجرة[٣]: "إِنَّ السيوفَ مفاتيحُ الجنَّةِ"[٤]

وفي الحديث عن سعد بن عبادة رضي الله عنه مرفوعًا: ((أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ؟» قُلْتُ: بَلَى؟ قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ))[٥].

وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحًا يُفتح به:

فجعل مفتاحَ الصلاةِ الطهورَ، كما قال: ((مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ))[٦]، ومفتاحَ الحجِ الإحرامَ، ومفتاحَ البرِّ الصدقَ، ومفتاحَ الجنَّةِ التوحيدَ، ومفتاحَ العلمِ

١"يروي عن جابر بن عبد الله وابن عباس، وكان عابدًا فاضلًا". الثقات لابن حبان (٥/ ٤٨٧).
٢صحيح البخاري (٢/ ٧١).
٣ "يزيد بن شجرة الرهاوي؛ يقال: إنَّ له صحبةً، قُتل غازيًا سنة خمس وخمسين". الثقات لابن حبان (٣/ ٤٤٥).
٤رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٢٤٦) هكذا بدون رفع، ولكنه ثبت مرفوعًا إلى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عند ابن أبي شيبة (١٩٣٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري. انظر الصحيحة (٢٦٧٢).
٥صحيح. الترمذي (٣٥٨١). الصحيحة (١٧٤٦).
٦صحيح. الترمذي (٣) من حديث علي رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٥٨٨٥).

حسنَ السؤال وحسنَ الإصغاء، ومفتاحَ النصرِ والظفرِ الصبرَ، ومفتاحَ المزيدِ الشكرَ، ومفتاحَ الوَلايةِ المحبةَ والذكرَ، ومفتاحَ الفلاحِ التقوى، ومفتاحَ التوفيقِ الرغبةَ والرهبةَ، ومفتاحَ الإجابةِ الدعاءَ، ومفتاحَ الرغبةِ في الآخرة الزهدَ في الدنيا، ومفتاحَ الإيمانِ التفكرَ فيما دعا اللهُ عبادَه إلى التفكر فيه، ومفتاحَ الدخولِ على الله إسلامَ القلب وسلامتَه له والإخلاصَ له في الحب والبغض والفعل والترك، ومفتاحَ حياةِ القلب تدبرَ القرآن والتضرعَ بالأسحار وتركَ الذنوب، ومفتاحَ حصولِ الرحمة الإحسانَ في عبادة الخالق، والسعيَ في نفع عبيده، ومفتاحَ الرزقِ السعيَ مع الاستغفار والتقوى، ومفتاحَ العِزِّ طاعةَ الله ورسوله، ومفتاحَ الاستعدادِ للآخرة قصرَ الأمل، ومفتاحَ كلِّ خيرٍ الرغبةَ في الله والدار الآخرة، ومفتاحَ كلِّ شرٍّ حبَّ الدنيا وطولَ الأمل.

وهذا بابٌ عظيمٌ مِن أنفع أبواب العلم، وهو معرفةُ مفاتيحِ الخير والشرِّ، لا يوفَّقُ لمعرفته ومراعاته إلَّا مَن عَظُمَ حظُّه وتوفيقُه؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى جعل لكل خير وشرٍّ مفتاحًا وبابًا يُدخل منه إليه:

كما جَعَلَ الشركَ والكبرَ والأعراضَ عما بعث اللهُ به رسولَه والغفلةَ عن ذِكْرِه والقيامِ بحقه مفتاحًا للنار، وكما جَعَلَ الخمرَ مفتاحَ كلِّ إثم، وجَعَلَ الغناء

مفتاحَ الزنى، وجَعَلَ إطلاقَ النظر في الصور مفتاحَ الطلب والعشق، وجَعَلَ الكسلَ والراحةَ مفتاحَ الخيبة والحرمان، وجَعَلَ المعاصيَ مفتاحَ الكفر، وجَعَلَ الكذبَ مفتاحَ النفاق، وجَعَلَ الشحَّ والحرصَ مفتاحَ البخلِ وقطيعةِ الرحم وأخْذِ المال مِن غير حِلِّه، وجَعَلَ الإعراضَ عما جاء به الرسول مفتاحَ كلِّ بدعة وضلالة.

وهذه الأمورُ لا يُصَدِّقُ بها إلَّا كلُّ مَن له بصيرةٌ صحيحةٌ وعقلٌ يَعرف به ما في نفسه وما في الوجود مِن الخير والشرِّ، فينبغي للعبد أنْ يعتنيَ كلَّ الاعتناء بمعرفة المفاتيح وما جُعلت المفاتيحُ له.

▪ الباب الخامس عشر: في توقيع الجنَّة، ومنشورها الذي يوقَّع به لأصحابها بعد الموت وعند دخولها

قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: ١٨ - ٢١] فأخبر اللهُ تعالى أنَّ كتابَهم كتابٌ مرقومٌ تحقيقًا لكونه مكتوبًا كتابةً حقيقيةً، وخصَّ تعالى كتابَ الأبرار بأنه يُكتب ويُوقَّعُ لهم به بمشهد المقربين مِن الملائكةِ والنَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادةَ هؤلاء لكتاب الفجار؛ تنويهًا بكتاب الأبرار وما وَقَعَ لهم به وإشهارًا له وإظهارًا بين خواصِّ خلْقِه؛ كما تكتبُ الملوكُ تواقيعَ مَن تعظمه بين الأمراء وخواصِّ أهل المملكة تنويهًا باسم المكتوب له وإشادةً بذكره، وهذا نوعٌ مِن صلاةِ الله سبحانه وتعالى وملائكته على عبده.

حديثٌ مهيبٌ جليلُ القدرِ في ذِكْرِ وفاةِ العبدِ ورفْعِ الرُّوح[١]

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: (خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ

---

١ أصله عند احمد وأبي داود وغيرهما، ولكن ننقله من كتاب "الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، لصهيب عبد الجبار" (١/ ٢٦٣)، وذلك لجمعه لألفاظه مع العناية الموجزة بمعانيه، جزاه الله خيرًا.

وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبرِ وَلَمْ يُلْحَدْ بَعْدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ الثَّرَى مِنْ دُمُوعِهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: (يَا إِخْوَانِي؛ لِمِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا)، ثُمَّ قَالَ: (اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبرِ)، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ؛ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ مِنْ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ حَرِيرَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيهِ السَّلَامُ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٍ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ. فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ)، قَالَ: (فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا،

حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَ يَجْعَلُونَهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَيَتَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى بَابِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ، رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ -بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا-، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكِ، وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، وَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، قَالَ: فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الَّتِي فِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ، فَيُجْلِسَانِهِ، غَيْرَ فَزِعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ[١]، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ

---

[١] قال السيوطي: "الشعف: شدة الفزع حتى يذهب بالقلب". حاشية السندي على ابن ماجه.

اللهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللهَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا يُدْرِيك[1]؟ فَيَقُولُ: قَرَأتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ، وَجَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ فَصَدَّقْنَاهُ). قَالَ: (فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ: صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ. فَيَقُولَانِ لَهُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: دَعُونِي أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُبَشِّرُهُمْ[2]، فَيَقُولَانِ لَهُ: نَمْ كَنَوْمَةِ

---

[1] أي: أي شيء أخبرك وأعلمك بما تقول من الربوبية والإسلام والرسالة. عون المعبود (١٠ /٢٧٤).

[2] أي: بأن حالي طيب ولا حزن لي ليفرحوا بذلك. تحفة (ج ٣ / ص ١٣٤)..

الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي [وفي رواية] فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ، فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَتْ فُلَانَةُ؟ هَلْ تَزَوَّجَتْ؟ فَإِذَا سَأَلُوا عَنِ الرَّجُلِ قَدْ مَاتَ قَبْلَهُ، قَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ قَدْ هَلَكَ؛ أَمَا أَتَاكُمْ؟! قَالُوا: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ، فَبِئْسَتِ الْأُمُّ، وَبِئْسَتِ الْمُرَبِّيَةُ، قَالَ: فَيُعْرَضُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ؛ فَإِذَا رَأَوْا حَسَنًا فَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذِهِ نِعْمَتُكَ عَلَى عَبْدِكَ فَأَتِمَّهَا، وَإِنْ رَأَوْا سُوءًا قَالُوا: اللَّهُمَّ رَاجِعْ بِعَبْدِكِ).

قَالَ: وَإِنَّ الْكَافِرَ الرَّجُلَ السَّوْءَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، سُودُ الْوُجُوهِ،

مَعَهُمْ الْمُسُوحُ١، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً، اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ). قَالَ: (فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتَتَقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا حَتَّى يَأْتُونَ بَابَ الْأَرْضِ، فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ! رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ). قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ رَيْطَةً٢ كَانَتْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْفِهِ هَكَذَا، (مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ -بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا-، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً؛ فَإِنَّهَا لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

١جمع المسح بالكسر، وهو اللباس الخشن.
٢الريطة: ثوب رقيق، وقيل: هي الملاءة، وكان سبب ردها على الأنف بسبب ما ذكر من نتن ريح روح الكافر. شرح النووي على مسلم - (ج ٩ / ص ٢٥٢).

وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١]، فَيُرْسَلُ بِهَا مِنْ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ فَزِعًا مَشْعُوفًا، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ مِثْلَهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ[١]، قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا الْخَلْقُ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، فَيُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ،

---

[١] أي: لا فهمت، ولا قرات القرآن، والمعنى: لا دريت، ولا اتبعت من يدري. فتح الباري (ج ٤ / ص ٤٤٩).

عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ حَتَّى تَاتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنْ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ؛ فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ، [وفي رواية] ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَرْحَمَهُ، مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ)).

قلتُ (ابن القيم): وقع المؤمنُ في قبضة أصحاب اليمين يومَ القبضتين، ثم كُتِبَ مِن أهل الجنَّة يومَ نفخِ الروح فيه، ثم يكتب في ديوان أهل الجنَّة يومَ موته، ثم يُعطى هذا المنشورَ يومَ القيامة[1]. فالله المستعان.

---

[1] يريد حديث الطبراني عن سلمان مرفوعًا ((لا يدخلُ الجنَّةَ أحدٌ إلَّا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا كتابٌ مِن الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنةً عاليةً، قطوفها دانيةٌ)).

▪ الباب السادس عشر: في توَحُّدِ طريق الجنَّة؛ وأنه ليس لها إلَّا طريق واحد

هذا مما اتفقت عليه الرسلُ مِن أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم، وأمَّا طرق الجحيم فأكثر مِن أنْ تحصى، ولهذا يُوحِّد سبحانه سبيلَه ويجمع سُبُلَ النار، كقوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]، وقال: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ} [النحل: ٩] أي: ومِن السبيل جائرٌ عن القصد، وهي سبيل الغي، وقال: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [الحجر: ٤١].

وقال ابن مسعود: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: (هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ)، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: (هَذِهِ سُبُلٌ -قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ- عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ)، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣]))١.

فإنْ قيل: فقد قال الله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)

وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الافريقي وهو ضعيف.

١صحيح. مسند أحمد (٤١٤٢). التعليقات الحسان (٧).

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} [المائدة: ١٥، ١٦]! قيل: هي سُبُلٌ تُجمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجَوادِّ والطرقِ في الطريق الأعظم، فهذه هي شُعَبُ الإيمان يجمعها الإيمانُ، وهو شُعبة، كما يَجمع ساقُ الشجرة أغصانَها وشُعَبَها، وهذه السُّبُلُ هي إجابةُ داعي الله بتصديق خبره، وطاعة أمره، وطريقُ الجنَّة هي إجابةُ الداعي إليها ليس إلَّا.

وروى البخاري في صحيحه عن جابر (جَاءَتْ مَلاَئِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ وَالقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا؛ فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا؛ فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا، فَقَالُوا: فَالدَّارُ الجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ[١])[٢].

١"فارقٌ بين المؤمن والكافر، والصالح والفاسق". مرقاة المفاتيح (١/ ٢٢٦).
٢صحيح البخاري (٧٢٨١).

▪ الباب السابع عشر: في درجات الجنَّة

قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٩٥، ٩٦].

وقال تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣].

وفي البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ -مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ- لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: (بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ))[١].

---

[١] صحيح البخاري (٣٢٥٦).

وفي الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا ((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ - إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ-: اقْرَأْ وَاصْعَدْ. فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ))١.

وهذا صريح في أنَّ درجَ الجنَّة تزيد على مائة درجة.

وأمَّا حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ))٢، فإمَّا أنْ تكون هذه المائة مِن جملة الدرج، وإمَّا أنْ تكون نهايتها هذه المائة وفي ضمن كل درجة درج دونها.

١صحيح. ابن ماجه (٣٧٨٠). صحيح الجامع (٨١٢١).
٢صحيح البخاري (٧٤٢٣).

▪ الباب الثامن عشر: في ذِكْرِ أعلى درجاتها، واسم تلك الدرجة

روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص أنه سمع النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: ((إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ؛ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))١.

وفي الحديث عن حديث عائشة رضي الله عنها (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ؛ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي ومَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ! فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَّلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ} [النساء: ٦٩] الْآيَةَ)٢.

١صحيح مسلم (٣٨٤).
٢حسن. الطبراني في الأوسط (٤٧٧). الصحيحة (٢٩٣٣).

وسُميتْ درجةُ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الوسيلةَ لأنها أقربُ الدرجات إلى عرش الرحمن، وهي أقربُ الدرجات إلى الله، وأصل اشتقاق لفظ "الوسيلة" مِن القُرب، وهي فعيلةٌ مِن "وَسَلَ إليه": إذا تقرَّب إليه، ولمَّا كان رسولُ الله أعظمَ الخلق عبوديةً لربه وأعلَمهم به وأشدَّهم له خشية وأعظمَهم له محبةً كانت منزلتُه أقربَ المنازل إلى الله، وهي أعلى درجة في الجنَّة، وأمر النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمتَه أنْ يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء زلفى مِن الله وزيادة الإيمان، وأيضًا فإنَّ اللهَ سبحانه قدَّرَها له بأسباب؛ منها: دعاءُ أمتِه له بها بما نالوه على يده مِن الإيمان والهدى صلوات الله وسلامه عليه.

▪ الباب التاسع عشر: في عرْض الرب تعالى سلعتَه الجنَّةَ على عباده، وثمنها الذي طلبه منهم، وعقْد التبايع الذي وقع بين المؤمنين وبين ربهم

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١١١-١١٢] فجَعَلَ سبحانه ها هنا الجنَّةَ ثمنًا لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد وأكَّده بأنواع مِن التأكيد -جاءت في السياق-، ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم، وهم التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون، وفسرت السياحة بالصيام، وفسرت بالسفر في طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة، والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله

ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، وتأمل كيف جَعَلَ الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين: هذا الثناء عليه بأوصاف كماله وسياحة اللسان في أفضل ذكره وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله، وجَعَلَ الركوع والسجود قرينتين، وجَعَلَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينتين، وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم إعلامًا بأنَّ أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجَعَلَ ذلك قرينًا لحفظ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان وذلك أمر غيره بحفظها.

وأفهمتِ الآيةُ خطرَ النفس الإنسانية وشرَفها وعظمَ مقدارها؛ فإنَّ السلعةَ إذا خفي عليك قدْرُها فانظر إلى المشتري لها مَن هو، وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو، وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع، فالسلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها، والثمن جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه.

قد هيؤك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وفي جامع الترمذي مِن حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه

وسلَّم: ((مَنْ خافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ))١.

وفي الصحيحين مِن حديث أبي هريرة (أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، قَالَ: (تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ المَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ)، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا)٢.

وههنا أمرٌ يجب التنبيهُ عليه، وهو أنَّ الجنَّة إنما تُدْخَلُ برحمة الله تعالى وليس عملُ العبد مستقلًا بدخولها -وإنْ كان سببًا-! ولهذا أثبتَ اللهُ تعالى دخولَها بالأعمال في قوله: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف: ٧٢]، ونفى رسولُ الله دخولَها بالأعمال بقوله: ((لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ))٣! ولا تنافي بين الأمرين لوجهين:

١صحيح. الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٦٢٢٢).

٢صحيح البخاري (١٣٩٧).

٣البخاري (٦٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

أحدهما: ما ذكره سفيانُ وغيره قال: "كانوا يقولون: النجاةُ مِن النار بعفو الله، ودخولُ الجنَّة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال"١.

والثاني: أنَّ الباءَ التي نفتِ الدخولَ هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلًا للآخر، والباءُ التي أثبتتِ الدخولَ هي باء السببية التي تقتضي سببيةَ ما دخلت عليه لغيره وإنْ لم يكن مستقلًا بحصوله، وقد جمع النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بين الأمرين بقوله: ((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لا يُدْخِلُ أَحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ)، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَلا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ))٢.

ومَن عرف اللهَ تعالى وشهد مشهدَ حقِّه عليه ومشهدَ تقصيره وذنوبه، وابصر هذين المشهدين بقلبه عرف ذلك، وجزم به، والله سبحانه وتعالى المستعان.

١ويشهد له حديث الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا ((إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا؛ نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ)) برقم (٢٥٤٩)، ولكنه ضعيف. ضعيف الجامع (١٨٣١).

٢صحيح البخاري (٦٤٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

▪ الباب العشرون: في طلب أهل الجنَّة لها مِن ربهم، وطلبها لهم، وشفاعتها فيهم إلى ربهم عزَّ وجلَّ

قال الله تعالى حكاية عن أولي الألباب مِن عباده قولهم: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، والمعنى: وآتنا ما وعدتنا على ألسِنَة رسلك مِن دخول الجنَّة.

وقد أشكل على بعض الناس سؤالُهم أنْ يُنْجِزَ لهم ما وعدهم مع أنه فاعل لذلك ولا بد! وأجاب بأنَّ هذا تعبدٌ محض، كقوله: {رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ} [الأنبياء: ١١٢]، وقول الملائكة: {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: ٧]، وخفي على هؤلاء أنَّ الوعدَ مُعَلَّقٌ بشروط؛ منها: الرغبة إليه سبحانه وتعالى وسؤاله أنْ يُنْجِزَه لهم، كما أنه معلَّق بالإيمان وموافاتهم به، وأنْ لا يَلْحَقه ما يحبطه، فإذا سألوه سبحانه أنْ يُنْجِزَ لهم ما وعدهم تضمن ذلك توفيقَهم وتثبيتَهم وإعانتَهم على الأسباب التي يُنْجِزُ لهم بها وعْدَه؛ كان هذا الدعاء مِن أهم الأدعية وأنفعها، وهم أحوج إليه مِن كثير مِن الأدعية.

وأمَّا قولُه {رَبِّ احْكُمْ} فهذا سؤالٌ له سبحانه وتعالى أنْ ينصرهم على أعدائهم؛ فيحكم لهم عليهم بالنصر والغلبة، وكذلك سؤالُ الملائكة ربَّهم أنْ يغفر للتائبين: هو مِن الأسباب التي يُوجِب بها لهم المغفرةَ، فهو سبحانه نصب الأسبابَ التي يفعل بها ما يريده بأوليائه وأعدائه، وجعلها أسبابًا لإرادته، كما جعلها أسبابًا لوقوع مراده، فمِنْه السبب والمسبَّب.

ونظيرُ هذه الآية في سؤاله ما وَعَدَ به قولُه تعالى: {قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} [الفرقان: ١٥، ١٦] يسأله إياه عبادُه المؤمنون، ويسأله إياه ملائكتُه لهم، فالجنَّةُ تسأل ربَّها أهلَها، وأهلُها يسألونه إياها، والملائكةُ تسألها لهم، والرسلُ يسألونه إياها لهم ولأتباعهم، ويومَ القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه يشفعون فيها لعباده المؤمنين، وفي هذا مِن تمام ملكه وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه وإعطائه ما سُئِلَ ما هو مِن لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها، فلا يجوز تعطيلُها عن آثارها وأحكامها، فالرب تعالى جوادٌ له الجود كلُّه، يحب أنْ يُسْأل ويُطلب منه ويُرغب إليه؛ فخَلَقَ مَن يسأله، وألهمه سؤالَه، وخَلَقَ له ما يسأله إياه، فهو

خالقُ السائلِ وسؤالِه ومسئولِه، وذلك لمحبته سؤالَ عبادِه له ورغبتهم إليه وطلبهم منه، وهو يغضب إذا لم يُسْأل.

اللهُ يغضب إنْ تركتَ سؤالَه ... وبني آدم حين يُسْألُ يغضب!

وأحبُّ خلْقِه إليه أكثرُهم وأفضلهم له سؤالًا، وهو يحب الملحين في الدعاء، وكلما ألحَّ العبدُ عليه في السؤال أحبه وقرَّبه وأعطاه، وفي الحديث: ((إنَّهُ مَنْ لم يَسْألِ اللهِ يَغضَبْ عَلَيهِ))[1].

وفي الحديث ((مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الجَنَّةُ: اللَّهُمَّ أَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ))[2].

وفي حديث آخر ((مَا اسْتَجَارَ عَبْدٌ مِنَ النَّارِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي يَوْمٍ؛ إِلَّا قَالَتِ النَّارُ: يَا رَبِّ إِنَّ عَبْدَكَ فُلَانًا قَدِ اسْتَجَارَكَ مِنِّي فَأَجِرْهُ، وَلَا يَسْأَلُ اللَّهَ عَبْدٌ الْجَنَّةَ فِي يَوْمٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ إِلَّا قَالَتِ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ إِنَّ عَبْدَكَ فُلَانًا سَأَلَنِي فَأَدْخِلْهُ))[3].

---

[1] صحيح. الترمذي (٣٣٧٣) عن أبي هريرة مرفوعًا. الصحيحة (٢٦٥٤).
[2] صحيح. الترمذي (٢٥٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (٥٦٣٠).
[3] صحيح. أبو يعلى (٦١٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٢٥٠٦)، وقد ردَّ الشيخ الألباني رحمه الله على مَن ضعَّفَه، وبَيَّن جهةَ الوهم في ذاك التضعيف.

▪ الباب الحادي والعشرون: في أسماء الجنَّة ومعانيها واشتقاقها

ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة مِن هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات؛ فهي متباينة مِن هذا الوجه، وهكذا أسماءُ الرب سبحانه وتعالى، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار.

١- الاسم الأول: الجنَّة.

وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه مِن أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين، وأصل اشتقاق هذه اللفظة مِن السَّتْر والتغطية، ومنه الجنين لاستتاره في البطن، والجانُّ لاستتاره عن العيون، والمِجَن لستره ووقايته الوجه، والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه، والجانُّ وهي الحية الصغيرة الرقيقة، ومنه سمى البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، فلا يستحق هذا الاسم إلَّا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع، والجُنة -بالضم- ما يستجن به مِن ترس أو غيره.

٢- الاسم الثاني: دار السلام.

وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنعام:

١٢٧]، وقوله: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} [يونس: ٢٥].

وهي أحقُّ بهذا الاسم؛ فإنها:

أ) دار السلامة مِن كل بلية وآفة ومكروه.

ب) وهي دار الله؛ واسمه سبحانه وتعالى السلام، الذي سلمها وسلم أهلها.

ج) {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [يونس: ١٠]، {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٣، ٢٤]، والرب تعالى يسلم عليهم مِن فوقهم، كما قال تعالى: {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} [يس: ٥٧، ٥٨].

د) وكلامُهم كلُهم فيها سلامٌ، أي لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل، كما قال تعالى: {لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا} [مريم: ٦٢].

٣- الاسم الثالث: دار الخلد.

وسميتْ بذلك لأنَّ أهلها لا يظعنون عنها أبدًا، كما قال تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]، وقال: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ} [ص: ٥٤]، {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: ٣٥]، وقال: {وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨].

٤- الاسم الرابع: دار المقامة.

قال تعالى حكاية عن أهلها: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٤، ٣٥] قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود، أقاموا فيها أبدًا، لا يموتون ولا يتحولون منها أبدًا.

٥- الاسم الخامس جنة المأوى.

قال تعالى: {عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} [النجم: ١٥]، والمأوى مَفْعُل مِن أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به.

٦- الاسم السادس: جنات عدن.

قيل: هو اسم جنة مِن جملة الجنات، والصحيح أنه اسم لجملة الجنان، وكلها جنات عدن، قال تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ} [مريم: ٦١]، والاشتقاق يدل على أنَّ جميعها جناتِ عدن؛ فإنه مِن الإقامة والدوام، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، وعدنت البلد توطنته، وعدنت الإبلُ مكانَ كذا لزمته فلم تبرح منه.

٧- الاسم السابع: دار الحيوان.

قال تعالى: {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ} [العنكبوت: ٦٤]، والمراد الجنَّة عند أهل التفسير، قالوا: وأنَّ الآخرة -يعني الجنَّة- لهي الحيوان: لهي دار الحياة التي لا موت، وأهل اللغة على أنَّ الحيوان بمعنى الحياة.

٨- الاسم الثامن: الفردوس.

قال تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [الكهف: ١٠٧].

والفردوس: اسم يقال على جميع الجنَّة، ويقال على أفضلها وأعلاها؛ كأنه أحقُّ بهذا الاسم مِن غيره مِن الجنات، وأصل الفردوس البستان، والفراديس البساتين، وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية، واختاره الزجاج؛ فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين.

٩- الاسم التاسع: جنات النعيم.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ} [لقمان: ٨]، وهذا أيضا اسم جامع لجميع الجنات لِمَا تضمنته مِن الأنواع التي يتنعم

بها مِن المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة، وغير ذلك مِن النعيم الظاهر والباطن.

١٠- الاسم العاشر: المقام الأمين.

قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الدخان: ٥١، ٥٢]، والمقام الأمين: موضع الإقامة، والأمين الآمن مِن كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها؛ فهو آمن مِن الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه مِن الخروج والنغص والنكد، والبلد الأمين: الذي قد أَمِنَ أهلُه فيه مما يخاف منه سواهم، وتأملْ كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} [الدخان: ٥١] وفي قوله تعالى: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} [الدخان: ٥٥] فجَمَعَ لهم بين أمن المكان وأمن الطعام؛ فلا يخافون انقطاع الفاكهة، ولا سوءَ عاقبتها ومضرتها، وأمنَ الخروج منها؛ فلا يخافون ذلك، وأمنٌ مِن الموت؛ فلا يخافون فيها موتًا.

١١و١٢- الاسم الحادي عشر والثاني عشر: مقعد الصدق، وقدم الصدق.

قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}

[القمر: ٥٤، ٥٥] فسمى الجنَّة مقعد صدق لحصول كل ما يراد مِن المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وجملة صادقة، ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه، بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته، ولا يتضمن أمرًا ثابتًا.

ولسان الصدق: وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل، ومدخل الصدق ومخرج الصدق: هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنًا على الله، وهو دخول وخروج بالله ولله، وهذه الدعوة مِن أنفع الدعاء للعبد[١]؛ فإنه لا يزال داخلًا في أمر وخارجًا مِن أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك؛ كان قد أُدخل مدخل صدق وأخرج مخرج صدق.

[١] الظاهر أنه يريد قوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} [الإسراء: ٨٠].

▪ الباب الثاني والعشرون: في عدد الجنات، وأنها نوعان: جنتان مِن ذهب وجنتان مِن فضة

الجنَّة: اسم شامل لجميع ما حوته مِن البساتين والمساكن والقصور، وهي جنات كثيرة جدًا، كما روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك (أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ -وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ- أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ أَلاَ تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ -وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ؛ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ[١]-؛ فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: (يَا أُمَّ حَارِثَةَ؛ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى))[٢].

وفي الصحيحين مِن حديث أبي موسى الاشعري عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: ((جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ))[٣].

١"سهمٌ غربٌ: أي جاء مِن حيث لا يدري". فتح الباري (١/ ١٦٢).
٢صحيح البخاري (٢٨٠٩).
٣صحيح البخاري (٤٨٧٨).

وقد قال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦] فذكرهما ثم قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]، فهذه أربعٌ.

وقد اختُلف في قوله: {وَمِنْ دُونِهِمَا} هل المراد به أنهما فوقهما[١] أو تحتهما؟ على قولين، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأولِيين مِن عشرة أوجه:

١- أحدها: قوله: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} [الرحمن: ٤٨]، وفيه قولان: أحدهما أنه جمع فنن، وهو الغصن. والثاني: أنه جمع فن وهو الصنف، أي ذواتا أصناف شتى مِن الفواكه وغيرها، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

٢- الثاني: قوله: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} [الرحمن: ٥٠]، وفي الأخريين {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} [الرحمن: ٦٦]، والنضاخة هي الفوارة، والجارية السارحة، وهي أحسن مِن الفوارة؛ فإنها تضمن الفوران والجريان.

٣- الثالث: أنه قال: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} [الرحمن: ٥٢]، وفي الأخريين: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨] ولا ريب أنَّ وصف الأولِيين أكملُ.

---

[١] على معنى: أقرب منهما إلى العرش.

واختلف في هذين الزوجين -بعد الاتفاق على أنهما صنفان-، والظاهر -والله أعلم- أنه الحلو والحامض، والأبيض والأحمر، وذلك لأنَّ اختلافَ أصناف الفاكهة أعجبُ وأشهى وألذُّ للعين والفم.

٤- الرابع: أنه قال: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤]، وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخريين قال: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]، وفُسِّرَ الرفرف بالمحابس[١] والبسط، وفُسِّرَ بالفرش، وفُسِّرَ بالمحابس فوقها، وعلى كل قولٍ فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

٥- الخامس: أنه قال: {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤] أي: قريب وسهل يتناولونه كيف شاءوا، ولم يذكر ذلك في الأخريين.

٦- السادس: أنه قال: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} [الرحمن: ٥٦] أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أنْ ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن:

---

١ "المحبس: ما يُغطى به الفراشُ للنوم عليه". المعجم الوسيط (١/ ١٥٢).

٧٢]، ومَن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكملُ ممن قصرت بغيرها.

٧- السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه[١]، ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

٨- الثامن: أنه قال سبحانه وتعالى في الجنتين الأوليين: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠]، وهذا يقتضي أنَّ أصحابهما مِن أهل الإحسان المطلق الكامل؛ فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

٩- التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين وجعلهما جزاء لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء للخائف لمقامه، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبَّب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين: مقربين، وأصحاب يمين؛ ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

١٠- العاشر: أنه قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]، والسياق يدل على أنه نقيض فوق.

---

[١] في قوله تعالى: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٥٨].

▪ الباب الثالث والعشرون: في خَلق الرب تبارك وتعالى بعضِ الجنان وغرسها بيده تفضيلًا لها على سائر الجنان

وقد اتخذ الربُّ وتعالى مِن الجنان دارًا اصطفاها لنفسه، وخصَّها بالقرب مِن عرشه، وغرسها بيده؛ فهي سيدة الجنان، والله سبحانه وتعالى يختار مِن كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار مِن الملائكة جبريل، ومِن البشر محمدًا، ومِن السموات العليا، ومِن البلاد مكة، ومِن الأشهر الأشهر الحرم، ومِن الليالي ليلةَ القدر، ومِن الأيام يوم الجمعة، ومِن الليل وسطه، ومِن الأوقات أوقات الصلوات، إلى غير ذلك؛ فهو سبحانه وتعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ} [القصص: ٦٨].

وعن ابن عمر (خَلَقَ اللَّهُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءٍ بِيَدِهِ: العَرْشَ، وَجَنَّاتِ عَدْنٍ، وَآدَمَ، وَالقَلَمَ)١.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه موقوفًا (خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْجَنَّةَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَهَا، وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: ١]، فَدَخَلَتْهَا الْمَلائِكَةُ فَقَالَتْ: طُوبَاكِ؛ مَنْزِلَ

١صحيح. المستدرك (٣٢٤٤)، وصححه الذهبي.

الْمُلُوكِ))١.

وتأملْ هذه العناية؛ كيف جعل هذه الجنَّة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده ولأفضل ذريته اعتناءً وتشريفًا وإظهارًا لفضل ما خلقه بيده، وشرفه وميزه بذلك عن غيره، وبالله التوفيق، فهذه الجنَّة في الجنات كآدم في نوع الحيوان.

وقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة مرفوعًا ((سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ؛ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا؛ فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ

١صحيح موقوف -وهو في حكم المرفوع-، رواه البزار (٣٥٠٧). الصحيحة (٢٦٦٢).

وَجَلَّ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] الْآيَةَ))١.

١صحيح مسلم (١٨٩).

▪ الباب الرابع والعشرون: في ذكر أبواب الجنَّة، وخزنتها، واسم مقدمهم ورئيسهم

قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الزمر: ٧٣]، والخزنة جمع خازن: ومثل حفظة وحافظ، وهو المؤتمن على الشيء الذي قد استحفظه.

وروى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ))١.

وقد تقدم حديث أبي هريرة المتفق عليه: ((مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ))، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا عَلَى

١صحيح مسلم (١٩٧).

مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ[١]، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ))[٢].

لمَّا سمتْ همة الصديق إلى تكميل مراتب الإيمان وطمعت نفسه أنْ يُدعى مِن تلك الأبواب كلها؛ سأل رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هل يحصل ذلك لأحد مِن الناس؟ ليسعى في العمل الذي ينال به ذلك، فأخبره بحصوله، وبشَّرَه بأنه مِن أهله، وكأنه قال: هل تكمل لأحد هذه المراتب فيُدعى يوم القيامة مِن أبوابها كلها؟ فلِلَّه ما أعلى هذه الهمة وأكبر هذه النفس.

وقد سمى الله سبحانه وتعالى كبير هذه الخزنة رضوان، وهو اسم مشتق مِن الرضا، وسمى خازن النار مالكًا، وهو اسم مشتق مِن الملك، وهو القوة والشدة حيث تصرفت حروفه.

---

١ "أي: ليس ضرورةٌ واحتياجٌ على مَن دُعِي مِن باب واحد مِن تلك الأبواب إنْ لم يُدْعَ مِن سائرها! لحصول المقصود وهو دخولُ الجنَّة". تحفة الأحوذي (١٠/ ١١٠).
٢صحيحي البخاري (١٨٩٧).

▪ الباب الخامس والعشرون: في ذكر أول مَن يَقرع باب الجنَّة

وقد تقدم حديث أنس، ورواه الطبراني بزيادة فيه قال: ((فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: أَقُومُ فَأَفْتَحُ لَكَ، فَلَمْ أَقُمْ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ، وَلَا أَقُومُ لِأَحَدٍ بَعْدَكَ))[١] وذلك أنَّ قيامَه إليه صلَّى الله عليه وسلَّم خاصة إظهارًا لمزيته ورتبته، ولا يقوم في خدمة أحد بعده، بل خزنة الجنَّة يقومون في خدمته، وهو كالملك عليهم، وقد أقامه الله في خدمة عبده ورسوله حتى مشى إليه وفتح له الباب.

وفي صحيح مسلم عن أنس مرفوعًا ((أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ))[٢].

١صفة الجنَّة لأبي نعيم (١٨٦).
٢صحيح مسلم (١٩٦).

▪ الباب السادس والعشرون: في ذكر أول الأمم دخولًا الجنَّة

في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا ((نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا؛ فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ))١ أي: لم يسبقونا إلَّا بهذا القدر.

فهذه الأمة أسبقُ الأمم خروجًا مِن الأرض، وأسبقُهم إلى أعلى مكان في الموقف، وأسبقُهم إلى ظل العرش، وأسبقُهم إلى الفصل والقضاء بينهم، وأسبقُهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقُهم إلى دخول الجنَّة، فالجنَّة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته٢.

١صحيح مسلم (٨٥٥).
٢قال ابن القيم رحمه الله: وأمَّا حديث ((أول مَن يصافحه الحق عمر، وأول مَن يسلم عليه، وأول مَن يأخذ بيده؛ فيدخله الجنَّة)) فهو حديث منكر جدًا، قال الإمام أحمد: داود بن عطاء ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث".

الباب السابع والعشرون: في ذكر السابقين مِن هذه الأمة إلى الجنَّة وصفتهم

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ؛ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ[1]، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا))[2].

وفي الصحيحين أيضًا من حديث أبي هريرة مرفوعًا ((إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ؛ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي

---

[1] "الألوة: العود الذي يُبخر به". فتح الباري (٦/ ٣٢٤)

[2] صحيح البخاري (٣٢٤٥).

السَّمَاءِ))١.

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عمرو مرفوعًا ((هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ؟) قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللهِ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ؛ الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ: ائْتُوهُمْ فَحَيُّوهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: نَحْنُ سُكَّانُ سَمَائِكَ، وَخِيرَتُكَ مِنْ خَلْقِكَ؛ أَفَتَأْمُرُنَا أَنْ نَأْتِيَ هَؤُلَاءِ فَنُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا عِبَادًا يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا، وَتُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَيَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ لَا يَسْتَطِيعُ لَهَا قَضَاءً! قَالَ: فَتَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]))٢.

ولمَّا ذكر الله تعالى أصنافَ بني آدم سعيدَهم وشقيَّهم؛ قَسَمَ سعداءهم إلى قسمين: سابقين، وأصحاب يمين، فقال: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ١٠]، واختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال:

١صحيح مسلم (٢٨٣٤).
٢صحيح. أحمد (٦٥٧٠)، وصححه الشيخ شعيب رحمه الله في تحقيق المسند.

أحدها: أنه مِن باب التوكيد اللفظي، ويكون الخبرُ قولَه: {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} .

والثاني: أنْ يكون السابقون الأول مبتدأ والثاني خبر له، على حد قولك: زيد زيد، أي: زيد الذي سمعتَ به هو زيد.

والثالث: أنْ يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنى: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان، وهذا أظهر، والله أعلم.

فإنْ قيل: فما تقول في حديث بريدة بن الحصيب، قال: ((أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا بِلَالًا فَقَالَ: " يَا بِلَالُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الجَنَّةِ؟ مَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ قَطُّ إِلَّا سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، دَخَلْتُ البَارِحَةَ الجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، فَأَتَيْتُ عَلَى قَصْرٍ مُرَبَّعٍ مُشْرِفٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنَ العَرَبِ، فَقُلْتُ: أَنَا عَرَبِيٌّ، لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ قَالُوا لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقُلْتُ: أَنَا قُرَشِيٌّ، لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ قَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: أَنَا مُحَمَّدٌ لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ قَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ". فَقَالَ بِلَالٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَذَّنْتُ قَطُّ إِلَّا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، وَمَا أَصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إِلَّا تَوَضَّأْتُ عِنْدَهَا وَرَأَيْتُ أَنَّ لِلَّهِ عَلَيَّ

رَكْعَتَيْنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِهِمَا» وَفِي البَابِ عَنْ جَابِرٍ، وَمُعَاذٍ، وَأَنَسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " رَأَيْتُ فِي الجَنَّةِ قَصْرًا مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ": " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ وَمَعْنَى هَذَا الحَدِيثِ: «أَنِّي دَخَلْتُ البَارِحَةَ الجَنَّةَ» يَعْنِي: رَأَيْتُ فِي المَنَامِ كَأَنِّي دَخَلْتُ الجَنَّةَ، هَكَذَا رُوِيَ فِي بَعْضِ الحَدِيثِ وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ))١؟

قيل: نتلقاه بالقبول والتصديق، ولا يدل على أنَّ أحدًا يسبق رسولَ الله إلى الجنَّة! وأمَّا تقدم بلال بين يدي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في الجنَّة فلأنَّ بلالًا كان يدعو إلى الله أولًا في الأذان فيتقدم أذانُه بين يدي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فتقدم دخولُه بين يديه كالحاجب والخادم٢.

١صحيح. الترمذي (٣٦٨٩). صحيح الجامع (٧٨٩٤).

٢وقال ابن القيم رحمه الله أيضًا: "وقد روي في حديث أنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُبعث يومَ القيامة وبلالٌ بين يديه ينادي بالأذان" فتقدمه بين يديه كرامةً لرسوله، وإظهارًا لشرفه وفضله، لا سبقًا مِن بلال! بل هذا السبق مِن جنس سبْقِه إلى الوضوء ودخول المسجد ونحوه. والله أعلم".

▪ الباب الثامن والعشرون: في سبْق الفقراء الأغنياء إلى الجنَّة

في صحيح مسلم مِن حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا ((إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا))١.

في المسند مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ؛ وَهُوَ خَمْسُ مِائَةِ عَامٍ))٢.

والذي في الصحيح أنَّ "سبْقَهم لهم بأربعين خريفًا" فإمَّا أنْ يكون هو المحفوظ، وإمَّا أنْ يكون كلاهما محفوظًا وتختلف مدة السبق بحسب أحوال الفقراء والأغنياء، فمنهم مَن يسبق بأربعين، ومنهم مَن يسبق بخمسمائة؛ كما يتأخر مكث العصاة مِن الموحدين في النار بحسب جرائمهم، والله أعلم.

ولكنْ ها هنا أمرٌ يجب التنبيهُ عليه، وهو أنه لا يلزم مِن سبقهم لهم في الدخول ارتفاع منازلهم عليهم؛ بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة وإنْ سبَقَه غيرُه في الدخول، والدليل على هذا أنَّ مِن الأُمَّة مَن يدخل الجنَّة بغير حساب -وهم السبعون ألفًا- وقد يكون بعض مَن يحاسب أفضلَ مِن أكثرهم،

١صحيح مسلم (٢٩٧٩).
٢صحيح. أحمد (٨٥٢١). صحيح الجامع (٨٠٧٦).

والغني إذا حوسب على غناه فوُجِدَ قد شكر الله تعالى فيه وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف كان أعلى درجة مِن الفقير الذي سبقه في الدخول ولم يكن له تلك الأعمال، ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله وزاد عليه فيها والله لا يضيع أجر مَن أحسن عملًا، فالمزية مزيتان: مزية سبْق، ومزية رفعة، وقد يجتمعان وينفردان؛ فيحصل للواحد السبقُ والرفعةُ ويعدمهما آخر، ويحصل لآخر السبق دون الرفعة ولآخر الرفعة دون السبق، وهذا بحسب المقتضي للأمرين أو لأحدهما وعدمه. وبالله التوفيق.

▪ الباب التاسع والعشرون: في ذكر أصناف أهل الجنَّة الذين ضمنت لهم دون غيرهم[1]

قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

فأخبر أنه أعدَّ الجنَّة للمتقين دون غيرهم، ثم ذكر أوصاف المتقين؛ فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر والشدة والرخاء؛ فإنَّ مِن الناس مَن يبذل في حال اليسر والرخاء ولا يبذل في حال العسر والشدة، ثم ذكر كف أذاهم عن الناس بحبس الغيظ بالكظم وحبس الانتقام بالعفو، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم؛ وأنها إذا صارت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة

---

[1] يراجع لزومًا الباب السبعون لما فيه من المشابهة لهذا الباب.

والاستغفار وترك الإضرار، فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلْقِه.

وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠] فأخبر تعالى أنه أعدها للمهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان؛ فلا مطمع لِمَن خرج عن طريقتهم فيها.

وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٢ - ٤] فوصفهم بإقامة حقه باطنًا وظاهرًا، وبأداء حق عباده.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ؛ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا -أَوْ عَبَاءَةٍ-)، ثُمَّ قَالَ

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؛ اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ)، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ)[1].

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي مرفوعًا (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: (أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ). قَالَ: (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ

---

[1] صحيح مسلم (١١٤).

مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ). قَالَ: (وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ؛ الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ -وَإِنْ دَقَّ- إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ)، وَذَكَرَ (الْبُخْلَ -أَوِ الْكَذِبَ-، وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ))[1].

وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب مرفوعًا ((ألا أخبركم بأهل الجنَّة كل أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ[2]؛ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ[3]))[4].

وفي الحديث ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِرِجَالِكُمْ فِي الْجَنَّةِ؟) قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (النَّبِيُّ فِي الْجَنَّةِ، وَالصِّدِّيقُ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّهِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْمَوْلُودُ فِي الْجَنَّةِ، وَالرَّجُلُ يَزُورُ أَخَاهُ فِي نَاحِيَةِ الْمِصْرِ -لَا يَزُورُهُ إِلَّا لِلَّهِ- فِي الْجَنَّةِ. أَلَا

---

[1] صحيح مسلم (٢٨٦٥).

[2] "فتح العين وكسرها -المشهور الفتح، ولم يذكر الأكثرون غيره- ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا، يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية الكسر فمعناها متواضع متذلل خامل واضع من نفسه". شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٨٧).

[3] "العتل: الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الجافي: الفظ الغليظ. والجواظ: الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: الفاخر". تم بتصرف يسير من شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٨٨).

[4] صحيح البخاري (٤٩١٨).

أُخْبِرُكُمْ بِنِسَائِكُمْ فِي الْجَنَّةِ؟) قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: (كُلُّ وَدُودٍ وَلُودٍ؛ إِذَا غَضِبَتْ أَوْ أُسِيءَ إِلَيْهَا قَالَتْ: هَذِهِ يَدِي فِي يَدِكَ؛ لَا أَكْتَحِلُ بِغَمْضٍ حَتَّى تَرْضَى))١.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا ((أَهْلُ الْجَنَّةِ: مَنْ مَلَأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خَيْرًا؛ وَهُوَ يَسْمَعُ. وَأَهْلُ النَّارِ: مَنْ مَلَأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا؛ وَهُوَ يَسْمَعُ))٢.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: (مُرَّ بِجَنَازَةٍ؛ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ)، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ). قَالَ عُمَرُ: فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بِجَنَازَةٍ؛ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ؛ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ،

١صحيح. الطبراني في الأوسط (١٧٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا. الصحيحة (٣٣٨٠).
٢صحيح. ابن ماجه (١٧٤٠). الصحيحة.

أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ)).[1]

وفي الحديث الآخر ((يُوشِكُ أَنْ تَعْرِفُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ -أَوْ قَالَ: خِيَارَكُمْ مِنْ شِرَارِكُمْ-)، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ بِمَاذَا؟ قَالَ: (بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّء، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)[2].

وبالجملة فأهل الجنَّة أربعة أصناف ذكرهم الله سبحانه وتعالى في قوله:

{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] فنسأل الله أنْ يجعلنا منهم بمنِّه وكرمه.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية[3]]

١صحيح مسلم (٩٤٩).

٢صحيح. الحاكم في المستدرك (٤١٣)، وصححه ووافقه الذهبي.

٣وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا ((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (هُمْ الضُّعَفَاءُ الْمَظْلُومُونَ -وفي رواية: كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ- لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ).

"والمراد بالضعيف: مَن نفسه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا، والمستضعف: المحتقر لخموله في الدنيا". فتح الباري (ج ١٤ / ص ٤٦). يُنظر: الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٨٦).

وأيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيْرِ)).

"قيل: مثلها في رقتها وضعفها، كالحديث الآخر: ((أَهْلُ الْيَمَنِ أَرَقُّ قُلُوبًا وَأَضْعَفُ أَفْئِدَةً)). وقيل: في الخوف والهيبة، والطير أكثر الحيوان خوفًا وفزعًا، كما قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَاده الْعُلَمَاء}، وكأنَّ المراد: قوم غلب عليهم الخوف، كما جاء عن جماعات مِن السلف في شدة خوفهم.

▪ الباب الثلاثون: في أنَّ أكثرَ أهل الجنَّة هم أمة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم

في الصحيحين مِن حديث عبد الله بن مسعود (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ: (أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟) قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: (أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟) قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: (أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟) قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ))١.

وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه مرفوعًا ((أَهْلَ الجنَّة عشرون ومئة صَفٍّ؛ هذه الأمة منها ثمانون صفًا))٢.

ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر، لأنه رجا أولًا أنْ يكونوا شطرَ أهل الجنَّة فأعطاه الله سبحانه رجاءه، وزاد عليه سدسا آخر.

وقيل: المراد: متوكلون. والله أعلم". شرح النووي (ج ٩ / ص ٢٢٣). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٨٨).

١صحيح البخاري (٦٥٢٨).

٢صحيح. التعليقات الحسان (٧٤١٦).

▪ الباب الحادي والثلاثون: في أنَّ النساء في الجنَّة أكثر مِن الرجال وكذلك هم في النار

في صحيح مسلم عن محمد بن سيرين قال: (إِمَّا تَفَاخَرُوا وَإِمَّا تَذَاكَرُوا: الرِّجَالُ فِي الْجَنَّةِ أَكْثَرُ أَمِ النِّسَاءُ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَوَ لَمْ يَقُلْ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ؟))[١] فإنْ كنَّ مِن نساء الدنيا؛ فالنساء في الدنيا أكثر مِن الرجال، وإنْ كنَّ مِن الحور العين لم يلزم أنْ يكن في الدنيا أكثر، والظاهر أنهن مِن الحور العين، لِمَا رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنْ حُورِ الْعِينِ، عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ الثِّيَابِ))[٢].

فإنْ قيل: فكيف تجمعون بين هذا الحديث وبين حديث جابر المتفق عليه (شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ

١صحيح مسلم (٢٨٣٤).
٢صحيح. أحمد (٨٥٤٢)، وصححه الشيخ شعيب رحمه الله في تحقيق المسند.

قَبْلَ الْخُطْبَةِ بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَى بِلَالٍ، فَأَمَرَ بِتَقْوَى اللهِ، وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: (تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ)، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ[1] سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ، فَقَالَتْ: لِمَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: (لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ)، قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ وَخَوَاتِمِهِنَّ)[2]، وفي صحيح مسلم ((إِنَّ أَقَلَّ سَاكِنِي الْجَنَّةِ النِّسَاءُ))[3]؟! قيل: هذا يدل على أنهن إنما كنَّ في الجنَّة أكثرَ بالحور العين التي خلقن في الجنَّة، وأقلُّ ساكنيها نساء الدنيا، فنساء الدنيا أقلُّ أهل الجنَّة وأكثر أهل النار.

وفي البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا ((اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ))[4][5].

---

[1] "المراد: امرأة مِن وسط النساء جالسة في وسطهن". شرح النووي على مسلم (٦/ ١٧٥).
[2] صحيح مسلم (٨٨٥).
[3] صحيح مسلم (٢٧٣٨) من حديث عمران رضي الله عنه مرفوعًا.
[4] صحيحي البخاري (٣٢٤١).
[5] قلت: وقد أشار الإمام ابن القيم رحمه الله هنا إلى ضعف حديث الصور الطويل، وفيه ((فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِئُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَثِنْتَيْنِ

وفي المسند عن عُمارة بن خزيمة (بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، فَقَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الشِّعْبِ إِذْ قَالَ: (انْظُرُوا، هَلْ تَرَوْنَ شَيْئًا؟) فَقُلْنَا: نَرَى غِرْبَانًا فِيهَا غُرَابٌ أَعْصَمُ١ أَحْمَرُ الْمِنْقَارِ وَالرِّجْلَيْنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْهُنَّ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فِي الْغِرْبَانِ((٢

آدَمِيَّتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ لِعِبَادَتِهِمَا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا)). والحديث رواه البيهقي في البعث والنشور (٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

١"هو الأبيض الجناحين، وقيل: الأبيض الرجلين. أراد: قلة مَن يدخل الجنَّة مِن النساء، لأنَّ هذا الوصف في الغربان عزيز قليل". النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٤٩).

٢صحيح. مسند احمد (١٧٧٧٠). الصحيحة (١٨٥٠).

▪ الباب الثاني والثلاثون: فيمن يدخل الجنَّة مِن هذه الأمة بغير حساب، وذِكر أوصافهم

في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا؛ تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ)، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ)، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ))[١].

وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد مرفوعًا ((لَيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا -أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ-؛ لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ))[٢][٣].

١صحيح البخاري (٦٥٤٢).
٢صحيح البخاري (٣٢٤٧).
٣٣"تنبيهٌ: هذه الأحاديث تخصُّ عمومَ الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي برزة الأسلمي رفعه ((لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن علمه فيما عمل به، وعن ماله مِن أين اكتسبه وفيم أنفقه))، وله شاهد عن ابن مسعود عند الترمذي، وعن معاذ بن جبل عند الطبراني، قال القرطبي: عموم الحديث واضح؛ لأنه نكرة في سياق النفي لكنه مخصوص بمَن يدخل الجنَّة بغير حساب، وبمَن يدخل النار مِن أول وهلة؛ على ما دل عليه قوله تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ} [الرحمن: ٤١] الآية" فتح الباري (١١/ ٤١٤).

فهذه هي الزمرة الأولى، وهم يدخلونها بغير حساب، والدليل عليه ما ثبت في الصحيحين عن حصين عبد الرحمن، قال: (كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: اسْتَرْقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ حُصَيْبٍ الْأَسْلَمِيِّ؛ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ، فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ)، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟) فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: (هُمُ الَّذِينَ [لَا يَرْقُونَ١] وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: (أَنْتَ مِنْهُمْ؟)، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: (سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)٢.

١تنبيه: وليس عند البخاري (لا يرقون)، قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو الصواب، وهذه اللفظة وقعتْ مقحَمةً في الحديث، وهي غلط مِن بعض الرواة، والتوكل ينافى التطير، وأما رقية العين فهي إحسان مِن الراقي، قد رقى رسولَ الله جبريلُ، وأذن في الرقي، وقال: ((لا بأس بها ما لم يكن فيها شرك)) واستأذنوه فيها فقال: ((مَن استطاع منكم أنْ ينفع أخاه فلينفعه)) وهذا يدل على أنها نفع وإحسان، وذلك مستحب مطلوب لله ورسوله. تم مختصرًا مِن موضعه في الكتاب.

فائدةٌ: نقل الحافظ في الفتح جوابَ بعضهم على كلام شيخ الإسلام رحمه الله، وقد أجاب الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب على جوابهم في كتابه تيسر العزيز الحميد.

٢صحيح مسلم (٢٢٠).

▪ الباب الثالث والثلاثون: في ذكر حثيات الرب تبارك وتعالى الذين يدخلهم الجنَّة

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه مرفوعًا ((وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سبعين أَلْفًا، وَثَلَاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي))١.

١صحيح. مسند أحمد (٢٢٣٠٣). صحيح الجامع (٧١١١).

▪ الباب الرابع والثلاثون: في ذكر تربة الجنَّة وطينتها وحصبائها وبنائها

في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا (قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّا إِذَا رَأَيْنَاكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ، وَإِذَا فَارَقْنَاكَ أَعْجَبَتْنَا الدُّنْيَا، وَشَمَمْنَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ! قَالَ: (لَوْ تَكُونُونَ -أَوْ قَالَ: لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ- عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا عِنْدِي؛ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَكُفِّهِمْ، وَلَزَارَتْكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا؛ لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِرَ لَهُمْ)، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ، مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: (لَبِنَةُ ذَهَبٍ وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ[1]، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ))[2]، وهكذا جاء في هذه الأحاديث أنَّ ترابها الزعفرانُ.

وفي الصحيحين عن أبي ذرٍّ يحدث أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال:

١"الذي لا خلْط فيه، أو الشديد الريح". فيض القدير (٣/ ٣٦٣).

٢صحيح. مسند أحمد (٨٠٤٣)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في التعليقات الحسان (١٠/ ٣٨٦)، وفي الأصل زيادة فيها ((ثلاثةٌ لا تُرَدُّ ....)) لم يصححها الشيخ رحمه الله.

((ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ؛ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ[1] اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ))[2] وهو قطعة مِن حديث المعراج.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري (قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ صَائِدٍ: (مَا تُرْبَةُ الْجَنَّةِ؟) قَالَ: دَرْمَكَةٌ[3] بَيْضَاءُ، مِسْكٌ يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ: (صَدَقْتَ))[4].

فهذه ثلاث صفات في تربتها، ولا تعارض بينها، فذهبت طائفة مِن السلف إلى أنَّ تربتها متضمنة للنوعين: المسك والزعفران، ويحتمل معنيين آخرين: أحدهما: أنْ يكون التراب مِن زعفران؛ فإذا عُجن بالماء صار مسكًا، والطينُ ترابًا، ويدل على هذا قوله في اللفظ الآخر ((مِلَاطُهَا المِسْكُ)) والملاط الطين، ويدل عليه أن في حديث العلاء بن زياد ((تُرَابُها الزَّعْفَرَانُ، وَطِينُهَا المِسْكُ))[5] فلما كانت تربتُها طيبةً وماؤها طيبًا؛ فانضم أحدُهما إلى الآخر حَدَثَ لهما طيبٌ آخرُ فصار مسكًا.

---

[1] "هي القِباب، واحدتها جَنْبَذَةٌ". شرح النووي على مسلم (٢/ ٢٢٢).
[2] صحيح البخاري (٣٣٤٢).
[3] "قال العلماء: معناه أنها في البياض درمكة، وفي الطيب مسك، والدرمك: هو الدقيق الحواري الخالص البياض". شرح النووي على مسلم (١٨/ ٥٢).
[4] صحيح مسلم (٢٩٢٨).
[5] الصحيحة تحت حديث (٢٥١٣).

المعنى الثاني: أنْ يكون زعفرانًا باعتبار اللون؛ مسكًا باعتبار الرائحة، وهذا مِن أحسن شيء، يكون البهجةُ والإشراقُ لونَ الزعفران، والرائحةُ رائحةَ المسك، وكذلك تشبهها بالدرمك، وهو الخبز الصافي الذي يضرب لونه إلى صفرة مع لينها ونعومتها.

▪ الباب الخامس والثلاثون: في ذِكر نورها وبياضها[1]

[1] ذكر المصنف رحمه الله فيها عدة أحاديث لم تصح، ويغني عنها إجمالاً ما جاء في الباب السابق.

▪ الباب السادس والثلاثون: في ذكر غرفها وقصورها ومقاصيرها وخيامها

قال الله تعالى: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ} [الزمر: ٢٠] فأخبر تعالى أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة لئلا تتوهم النفوس أنَّ ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء! بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض حتى كأنها ينظر إليها عيانًا، و "مبنيةٌ" صفة للغرف الأولى والثانية، أي: لهم منازل مرتفعة وفوقها منازل أرفع منها.

قال تعالى: {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا} [الفرقان: ٧٥]، والغرفة جنس كالجنَّة، وتأملْ كيف جَعل جزاءَهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله الغرفةَ والتحيةَ والسلامَ في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبُدِّلوا بذلك سلامَ الله وملائكتَه عليهم.

وقال تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} [الصف: ١٢].

وقال تعالى: {قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} [التحريم: ١١].

وروى الترمذي عن علي رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا))، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ((لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ))١.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ -مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ- لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: ((بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ))٢.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا ((فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا

١حسن. الترمذي (١٩٨٤). صحيح الجامع (٢١٢٣).
٢صحيح البخاري (٣٢٥٦).

أَهْلُ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ))١.

وفي حديث أبي موسى يقول الله عزَّ وجلَّ لِمَن حَمِدَ واسترجع عندَ موتِ ولدِه: ((ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ))٢

وفي الصحيحين مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه ((أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ -أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ-، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ))٣، والقصبُ هنا قصبُ اللؤلؤ المجوف.

وفي الصحيحين مِن حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((دَخَلْتُ الجَنَّةَ؛ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ يَا ابْنَ الخَطَّابِ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنْ غَيْرَتِكَ). قَالَ: وَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟)٤.

وفي الحديث عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِغُرَفِ الْجَنَّةِ؟)،

١صحيح مسلم (٢٨٣٨).
٢حسن. الترمذي (١٠٢١). صحيح الجامع (٧٩٥).
٣صحيح البخاري (٣٨٢٠).
٤صحيح البخاري (٧٠٢٤).

قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِينَا أَنْتَ وَأَمِّنَا، قَالَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلِّهِ، يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَالسَّرَفِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ)، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَلِمَنْ هَذِهِ الْغُرَفُ؟ قَالَ: (لِمَنْ أَفْشَى السَّلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ)، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟! قَالَ: (أُمَّتِي تُطِيقُ ذَلِكَ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ أَفْشَى السَّلَامَ، وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ؛ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَقَدْ أَدَامَ الصِّيَامَ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، وَصَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ؛ فَقَدْ صَلَّى اللَّيْلَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسُ))[1].

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية[2]]

---

[1] قوي. رواه البيهقي في البعث والنشور (٢٥٣)، وقال عقبَه: "وهذا الإسناد غير قوي، إلَّا أنه مِن الإسنادين الأولين يقوي بعضُه بعضًا، والله أعلم".
قلتُ: وبنحوه قواه الإمام ابن القيم رحمه الله في الأصل.

[2] وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ، مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ؛ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ})). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٦٣).
وأيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ؛ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، فَيَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ اللهَ هَدَانِي. وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ

▪ الباب السابع والثلاثون: في ذكر معرفتهم لمنازلهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنَّة وإنْ لم يروها قبل ذلك

قال تعالى: {وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [محمد: ٤ - ٦]، قال مجاهد وغيره: "يهتدي أهلُها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خُلِقوا؛ لا يستدلون عليها أحدًا"، هذا قول جمهور المفسرين، وتلخيص أقوالهم ما قاله أبو عبيدة: "عرَّفها لهم: أي بيَّنَها لهم حتى عرفوها مِن غيرِ استدلال".

وقال الحسن: "وَصَفَ اللهُ الجنَّةَ في الدينا لهم؛ فإذا دخلوها عرفوها بصفتها"، وعلى هذا القول فالتعريف وقع في الدنيا، ويكون المعنى يدخلهم الجنَّةَ التي عرَّفها لهم، وعلى القول الأول يكون التعريفُ واقعًا في الآخرة.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا ((يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ

مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ؛ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً، فَيَقُولُ: لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٩٣).

فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا))١.

١صحيح البخاري (٦١٧٠).

▪ الباب الثامن والثلاثون: في كيفية دخولهم الجنَّة وما يَستقبلون عند دخولها

قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا} [الزمر: ٧٣].

وقال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥].

وفي الصحيحين مِن حديث سهل بن سعد رضي الله عنه مرفوعًا ((ليدخلنَّ الجنَّة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة أَلْفٍ -لَا يَدْرِي أَبُو حَازِمٍ أَيُّهُمَا قَالَ- مُتَمَاسِكُونَ؛ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ ليلة البدر))١.

١صحيح البخاري (٦١٨٧).

▪ الباب التاسع والثلاثون: في ذكر صفة أهل الجنَّة في خَلْقهم وخُلُقهم، وطولهم وعرضهم، ومقدار أسنانهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ: طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ؛ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ))١.

وعن أبي هريرة أيضًا مرفوعًا ((يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ؛ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ))٢.

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((يُبْعَثُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى صُورَةِ آدَمَ؛ فِي مِيلَادِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ، ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِمْ إِلَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَيُكْسَوْنَ مِنْهَا، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ»))٣.

١صحيح البخاري (٦٢٢٧).
٢حسن. أحمد (٧٩٣٣). صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤٩١).
٣البعث لابن أبي داود (٦٥)، وصححه محقق كتاب المطالب العالية (مجموعة مِن الباحثين) بتنسيق الشيخ سعد الشثري حفظه الله، طباعة دار العاصمة.

وقد تقدم أنَّ أولَ زمرة صورتُهم على صورة القمر ليلة البدر، وأنَّ الذين يلونهم على ضوء أشد كوكب في السماء إضاءة، وأمَّا الأخلاق فقد قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧] فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خلقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ؛ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ))١، والرواية على "خَلْق" بفتح الخاء وسكون اللام، والأخلاق كما تكون جمعًا للخُلق بالضم؛ فهي جمعٌ للخَلق بالفتح٢، والمراد تساويهم في الطول والعرض والسِّنِّ وإنْ تفاوتوا في الحسن والجمل، ولهذا فسره بقوله: "على صورة أبيهم آدم عليه السلام؛ ستون ذراعا في السماء".

وأمَّا أخلاقهم وقلوبهم؛ ففي الصحيحين مِن حديث أبي هريرة: "أولُ زمرةٍ تَلِجُ الجنَّةَ" الحديث وقد تقدم؛ وفيه ((لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ

١صحيح مسلم (٢٨٣٤).

٢ قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: "قد ذكر مسلم في الكتاب اختلاف ابن أبي شيبة وأبي كريب في ضبطه؛ فإنَّ ابن أبى شيبة يرويه بضم الحاء واللام، وأبو كريب بفتح الحاء وإسكان اللام، وكلاهما صحيح، وقد اختَلف فيه رواةُ صحيح البخاري، ويُرجح الضم بقوله في الحديث الآخر (لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلبٌ واحد)، وقد يُرجح الفتح بقوله صلَّى الله عليه وسلَّم في تمام الحديث (على صورة أبيهم آدم أو على طوله)". شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٧٢).

قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا))١، وكذلك وصف الله سبحانه وتعالى نساءهم بأنهن أترابٌ، أي: في سِنٍّ واحد ليس فيهن العجائز والشواب.

وفي هذا الطول والعرض والسِّنِّ مِن الحكمة ما لا يخفى؛ فإنه أبلغ وأكمل في استيفاء اللذات، لأنه أكمل سِنِّ القوة مع عِظَمِ آلات اللذة، وباجتماع الأمرين يكون كمال اللذة وقوتها بحيث يصل في اليوم الواحد إلى مئة عذراء -كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى-، ولا يخفى التناسبُ الذي بين هذا الطول والعرض؛ فإنه لو زاد أحدهما على الآخر فات الاعتدال وتناسب الخلقة؛ يصير طولًا مع دقة، أو غلظًا مع قصر! وكلاهما غير مناسبٍ. والله أعلم.

١صحيح البخاري (٣٢٤٥).

▪ الباب الأربعون: في ذكر أعلى أهل الجنَّة منزلة وأدناهم، أعلاهم منزلةً سيدُ ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه

قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} [البقرة: ٢٥٣] قال مجاهد وغيره: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} موسى، {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} هو محمد.

وفي حديث الإسراء المتفق على صحته أنه لمَّا جاوز موسى قال: ((ربِّ لَمْ أظنَّ أَنْ ترفع عليَّ أحداً! ثُمَّ عَلَا بِهِ فَوْقَ ذَلِك بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى جَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى))١.

وفي صحيح مسلم مِن حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعًا ((إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُو، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ))٢.

وفي صحيح مسلم مِن حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعًا ((سَأَلَ

١صحيح مسلم (٧٠٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا.
٢صحيح مسلم (٣٨٤).

مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ؛ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ! كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ، رَبِّ! فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ. وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ! قَالَ: رَبِّ! فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا[١]، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧])[٢].

١"معناه: اصطفيتهم وتوليتهم؛ فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير". شرح النووي على مسلم (٣/ ٤٦).

٢صحيح مسلم (١٨٩).

▪ الباب الحادي والأربعون: في تحفة أهل الجنَّة إذا دخلوها

روى مسلم في صحيحه مِن حديث ثوبان رضي الله عنه، قال: (كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ! فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا. فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي)، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟)، قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ. فَنَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: (سَلْ)، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: (هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ)، قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: (فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ)، قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: (زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ)، قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: (يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا)، قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: (مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا)، قَالَ: صَدَقْتَ. قَال: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ

مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ؛ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: (يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟) قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟ قَالَ: (مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ؛ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ؛ آنَثَا بِإِذْنِ اللَّهِ)، قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِي اللهُ بِهِ))١.

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه (سَمِعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ بِقُدُومِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ٢، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: (أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جِبْرِيلُ آنِفًا)، قَالَ: جِبْرِيلُ؟؟ قَالَ: (نَعَمْ)، قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ({مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ}، أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ

١صحيح مسلم (٣١٥).

٢"أي: يجتني من الثمار". فتح الباري (٧/ ٢٥٢).

مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ)، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي. فَجَاءَتِ الْيَهُودُ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللهِ فِيكُمْ)، قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، قَالَ: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟)، فَقَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَانْتَقَصُوهُ، قَالَ: فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللهِ)١.

وفي الصحيحين مِن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ: نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ)، فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا القَاسِمِ، أَلاَ أُخْبِرُكَ بِنُزُلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: (بَلَى)، قَالَ: تَكُونُ الأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً٢ -كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

١صحيح البخاري (٤٤٨٠).
٢"معنى الحديث: أنَّ الله تعالى يجعل الأرضَ كالظلمة والرغيف العظيم، ويكون ذلك طعامًا نزلًا لأهل الجنَّة. والله على كل شيء قدير". شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٣٥).

وَسَلَّمَ-، فَنَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلاَ أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ؟ قَالَ: إِدَامُهُمْ بَالاَمٌ[١] وَنُونٌ، قَالُوا: وَمَا هَذَا؟ قَالَ: ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا)[٢].

١"لفظة عبرانية معناها بالعبرانية ثور". شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٣٦).
٢صحيح البخاري (٦٥٢٠).

▪ الباب الثاني والأربعون: في ذكر ريح الجنَّة، ومِن مسيرة كم يُنشق

روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا ((مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ[١] رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا))[٢].

وقد أخرجا في الصحيحين مِن حديث أنس قال: (عَمِّيَ -الَّذِي سُمِّيتُ بِهِ- لَمْ يَشْهَدْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدْرًا، قَالَ: فَشَقَّ عَلَيْهِ، قَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُيِّبْتُ عَنْهُ! وَإِنْ أَرَانِيَ اللهُ مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَرَانِي اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا، قَالَ: فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ لَهُ أَنَسٌ: يَا أَبَا عَمْرٍو[٣]، أَيْنَ؟ فَقَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، قَالَ: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ، قَالَ: فَوُجِدَ

---

[١] لم يجد ريحها، ولم يشمها.
[٢] صحيح البخاري (٣١٦٦).
[٣] "كنية سعد بن معاذ، أين: أي أين تذهب، ولم ينتظر جواب سعد بن معاذ لشدة اشتياقه إلى القتال". الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٨/ ٢٣٥).

فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ بَيْنِ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ أُخْتُهُ - عَمَّتِيَ الرُّبَيِّعُ بِنْتُ النَّضْرِ-: فَمَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ. وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣]، قَالَ: فَكَانُوا يُرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ)١.

وريح الجنَّة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العباد، وريح يدرك بحاسة الشم للأبدان، كما يَشم روائحَ الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنَّة في إدراكه في الآخرة مَن قَرُبَ وبَعُدَ، وأمَّا في الدنيا فقد يدركه مَن شاء الله مِن أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنسُ بن النضر يجوز أنْ يكونَ مِن هذا القسم، وأنْ يكون مِن الأول، والله أعلم.

وقد جعل سبحانه نارَ الدنيا وآلامها وغمومها وأحزانها تذكرةً بنار الآخرة، قال تعالى في هذه النار: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً} [الواقعة: ٧٣]، وأخبر النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ شدةَ الحرِّ والبرد مِن أنفاس جهنم؛ فلا بد أنْ يَشهد عبادُه جنتَه وما يذكرهم بها. والله المستعان.

١صحيح مسلم (١٩٠٣).

▪ الباب الثالث والأربعون: في الأذان الذي يؤذن به مؤذنُ الجنَّة فيها

روى مسلم في صحيحه مِن حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما مرفوعًا عن النَّبِي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]))١.

وفي صحيح مسلم مِن حديث صهيب رضي الله عنه مرفوعًا ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ))٢.

وفي الحديث أيضًا ((إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ؛ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ

١صحيح مسلم (٢٨٣٧).
٢صحيح مسلم (١٨١).

الجَنَّةِ لاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ))١.

وهذا الأذان وإنْ كان بين الجنَّة والنار؛ فهو يبلغ جميع أهل الجنَّة والنار، ولهم فيها نداء آخر يوم زيارتهم ربهم تبارك وتعالى، يرسل إليهم مَلَكًا فيؤذن فيهم بذلك، فيتسارعون إلى الزيارة كما يؤذن مؤذن الجمعة إليها، وذلك في مقدار يوم الجمعة كما سيأتي مبينًا في باب زيارتهم الرب عزَّ وجلَّ. والله أعلم.

١صحيح البخاري (٦٥٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

▪ الباب الرابع والأربعون: في أشجار الجنَّة وبساتينها وظلالها

قال تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٢٧ - ٣٣].

وقال تعالى: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} [الرحمن: ٤٨] وهو جمع "فَنَن" وهو الغصن،

وقال: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨].

والمخضود: الذي قد خُضِد شوكه، أي: نُزِع وقُطع؛ فلا شوك فيه.

وفي الحديث عن سُلَيم بن عامر رضي الله عنه (كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَنْفَعُنَا بِالْأَعْرَابِ وَمَسَائِلِهِمْ، قَالَ: أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ يَوْمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً مُؤْذِيَةً وَمَا كُنْتُ أَرَى شَجَرَةً تُؤْذِي صَاحِبَهَا! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَمَا هِيَ؟) قَالَ: السِّدْرُ، فَإِنَّ لَهَا شَوْكًا مُؤْذِيًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَلَيْسَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ} [الواقعة: ٢٨] خَضَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَوْكَهُ فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً، فَإِنَّهَا لَتُنْبِتُ ثَمَرًا

تَفَتَّقُ الثَّمَرَةُ عَنِ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْنًا مِنْ طَعَامٍ مَا فِيهِ لَوْنٌ يُشْبِهُ الْآخَرَ))١.

وقالت طائفة: المخضود هو الموقر حملًا، وأُنكر عليهم هذا القول، وقالوا: لا يُعرف في اللغة الخضد بمعنى الحمل! ولم يُصِبْ هؤلاء الذين أَنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح، وأربابه ذهبوا إلى أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لمَّا خَضَدَ شوكَه واذهبه وجعل مكان كل شوكة ثمرة أوقرت بالحمل، وكذلك قول مَن قال: المخضود الذي لا يَعقر اليد، ولا يَرد اليدَ عنه شوكٌ ولا أذى فيه؛ فسَّره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يَذكرون لازم المعنى المقصود تارة، وفردًا مِن أفراده تارةً ومثالًا مِن أمثلته؛ فيحكيها الجماعون للغثِّ والسمين أقوالًا مختلفة! ولا اختلاف بينها.

وأمَّا الطلحُ؛ فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرةُ الموز، والظاهر أنَّ مَن فسَّر الطلح المنضود بالموز إنما أراد التمثيلَ به لحُسن نضْدِه، وإلَّا فالطلح في اللغة هو الشجر العظام مِن شجر البوادي. والله أعلم.

وعند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((مَا فِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ إِلَّا وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ))٢.

١صحيح لغيره. صفة الجنَّة لابن أبي الدنيا (١٠٥). صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٤٢).
٢صحيح. الترمذي (٢٥٢٥). صحيح الجامع (٥٦٤٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((يَقُولُ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧]، وَفِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٣٠]، وَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]))١.

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ، قَالَ: (طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي)، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: (شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ؛ ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا))٢.

وفي الحديث (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنِ

١حسن. الترمذي (٣٢٩٢). صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٢٨).
٢صحيح. مسند أحمد (١١٦٧٣). التعليقات الحسان (٧١٨٦).

الْحَوْضِ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: (نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى)، فَذَكَرَ شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ قَالَ: أَيُّ شَجَرِ أَرْضِنَا تُشْبِهُ؟ قَالَ: (لَيْسَتْ تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ). فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَتَيْتَ الشَّامَ؟) فَقَالَ: لَا، قَالَ: (تُشْبِهُ شَجَرَةً بِالشَّامِ تُدْعَى الْجَوْزَةُ، تَنْبُتُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدٍ، وَيَنْفَرِشُ أَعْلَاهَا)، قَالَ: مَا عِظَمُ أَصْلِهَا؟ قَالَ: (لَوْ ارْتَحَلَتْ جَذَعَةٌ مِنْ إِبِلِ أَهْلِكَ، مَا أَحَطْتَ بِأَصْلِهَا حَتَّى تَنْكَسِرَ تَرْقُوَتُهَا هَرَمًا)، قَالَ: فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: (نَعَمْ)، قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْعُنْقُودِ؟ قَالَ: (مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْقَعِ[1]، وَلَا يَفْتُرُ)، قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْحَبَّةِ؟ قَالَ: (هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ تَيْسًا مِنْ غَنَمِهِ قَطُّ عَظِيمًا؟) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: (فَسَلَخَ إِهَابَهُ فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ؛ قَالَ: اتَّخِذِي لَنَا مِنْهُ دَلْوًا؟) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ لَتُشْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ قَالَ: (نَعَمْ؛ وَعَامَّةَ عَشِيرَتِكَ))[2].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وَذَكَرَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى-، قَالَ: (يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّ الْفَنَنِ

---

[1] "قيل: الأبقع ما خالط بياضَه لونٌ آخر. وغراب أبقع: فيه سواد وبياض، ومنهم مَن خصَّ فقال: في صدره بياض". لسان العرب (٨/ ١٧).

[2] صحيح. مسند احمد (١٧٦٤٢) من حديث عتبة بن عبد الله السُّلَمِي. صحيح الترغيب والترغيب (٣٧٢٩).

مِنْهَا مِائَةَ سَنَةٍ أَوْ يَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا مِائَةُ رَاكِبٍ -شَكَّ يَحْيَى-، فِيهَا فَرَاشُ[1] الذَّهَبِ، كَأَنَّ ثَمَرَهَا الْقِلَالُ))[2].

---

[1] "واحدها: فَراشة، وهي التي تطير وتتهافت في السراج". المفاتيح في شرح المصابيح للمُظْهري (٦/ ١٧).

[2] حسن. الترمذي (٢٥٤١).الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين للوادعي (١٥٢٨)، وصححه الشيخ الألباني في الترغيب وضعفه في الترمذي.

▪ الباب الخامس والأربعون: في ثمارها، وتعداد أنواعها وصفاتها وريحانها

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥].

وقولهم: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ} أي: شبيهه ونظيره؛ لا عينه.

وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره مِن الفواكه والثمار، أو هذا نظير الذي رزقناه قبلُ في الجنَّة؟ قيل فيه قولان:

الأول: أنهم أُتوا بالثمرة في الجنَّة؛ فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا مِن قبلُ في الدنيا.

وقال آخرون: هذا الذي رزقنا مِن قبلُ مِن ثمار الجنَّة مِن قبلِ هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا في اللون والطعم. واحتج أصحابُ هذا القول بحجج:

١- أنَّ المشابهةَ التي بين ثمار الجنَّة بعضها لبعض أعظمُ مِن المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا، ولشدة المشابهة قالوا: هذا هو.

٢- أنَّ ثمارَ الجنَّة كلما نُزِع منها شيءٌ عاد مكانه آخر مثله.

٣- قوله: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} هذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ}.

٤- أنَّ مِن المعلوم أنه ليس كل ما في الجنَّة مِن الثمار قد رُزقوه في الدنيا، وكثير مِن أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها.

٥- عدم صحة توجيه القول الآخر في أن المقصود به ما رزقوا به في الدنيا من جهات، أهمها:

أحدها: أنَّ كثيرًا مِن ثمار الجنَّة -وهي التي لا نظير لها في الدنيا- لا يقال فيها ذلك.

الثاني: أنَّ كثيرًا مِن أهلها لم يُرزقوا جميعَ ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنَّة.

الثالث: أنه مِن المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد ... كلما أكلوا ثمرة واحدة قالوا: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ويستمرون على هذا الكلام دائمًا إلى غير نهاية! وإنما معنى كلامهم: أنه يشبه بعضه بعضًا ليس أوله خيرًا مِن آخره، ولا هو مما يَعرض له ما يَعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها مِن نقصان حملها وصغر ثمرها وغير ذلك، بل أوله مثلُ

آخره، وآخره مثلُ أوله، هو خيار كله يشبه بعضه بعضًا١.

وأمَّا قوله عزَّ وجلَّ: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً} قال الحسن: خيار كله لا رذل، ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه؟! وأنَّ ذلك ليس فيه رذل، وقال قتادة: خيار لا رذل فيه؛ فإنَّ ثمار الدنيا يُنقى منها ويُرذل منها. وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق والتماثل.

وقالت طائفة أخرى: متشابهًا في اللون والمرأى وليس يُشبه الطعم، وقالت طائفة: معنى الآية أنه يشبه ثمر الدنيا غير أنَّ ثمر الجنَّة أفضل وأطيب٢.

وقال: {جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} [ص: ٥٠، ٥١].

وقال تعالى: {يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} [الدخان: ٥٥]، وهذا يدل على أمْنِهم مِن انقطاعها ومضرتها.

وقال تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ

١ورجحت طائفة -منهم ابن جرير وغيره- القول الآخر، واحتجت بوجوه أهمها: أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه قال: {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً} يقولون: {هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ} يدخل في عمومها أول رزق يرزقوه في الجنَّة؛ فلا بد أنْ يكون مقصودًا به ما كان سابقًا لدخولهم الجنَّة.
قلتُ: إلَّا أنَّ أصحاب القول الأول أجابوا على ذلك بأنَّ هذا العموم مخصوص بما عدا الرزق الأول لدلالة العقل والسياق عليه.
٢وسبق الجواب على هذا القول.

كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

وقال تعالى: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۞ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٢، ٣٣]

أي: لا تكون في وقت دون وقت، ولا تُمنع ممن أرادها.

وقال: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: ٢١ - ٢٣] والقطوف جمع قِطف، وهو ما يُقطف، والقَطف -بالفتح-: الفعل، أي ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها فيأخذها كيف يشاء، قال البراء بن عازب: "يتناول الرجل مِن فواكهها وهو نائم"١.

وقال تعالى: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الإنسان: ١٤]

قال ابن عباس: (إِذا هَمَّ أنْ يَتناول مِن ثمارها تَدَلَّتْ إليه حتى يتناول ما يريد)٢، وقال غيره: "قريب إليهم مُذللة كيف شاءوا فهم يتناولونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين"، فيكون كقوله: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ}، ومعنى تذليل القِطف: تسهيل تناوله.

وقال تعالى: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} [الرحمن: ٥٢]، وفي الجنتين الأُخريين: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} [الرحمن: ٦٨]، وخصَّ النخلَ

١تفسير الطبري (٢٣/ ٥٨٦).
٢زاد المسير (٤/ ٣٧٨).

والرمان مِن بين الفاكهة بالذكر لفضلهما وشرفهما؛ كما نصَّ على حدائق النخل والأعناب في سورة النبأ إِذْ هما مِن أفضل أنواع الفاكهة وأطيبها وأحلاها، وقد قال تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ١٥].

وعن أبي موسى رضي الله عنه موقوفًا (لَمَّا أُخْرِجَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ؛ زُوِّدَ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ، فَثِمَارُكُمْ هَذِهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ؛ غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَغَيَّرُ وَتِلْكَ لَا تَغَيَّرُ)[١].

وعن جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى لَوْ مَدَدْتُ يَدِي تَنَاوَلْتُ مِنْ قُطُوفِهَا))[٢].

وأمَّا الريحان[٣]؛ فهو كل نبت طيب الرائحة، قال أبو العالية: (يُؤتى بغصن مِن ريحان الجنَّة فيشمُّه)[٤].

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية[٥]]

١صحيح موقوفًا. البزار (٣٠٢٩). انظر حديث الضعيفة (٦١٩٣).
٢صحيح. النسائي في الكبرى (١٨٩٦). صحيح الجامع (٤٠٠١).
٣كما في قوله تعالى: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ} [الواقعة: ٨٩].
٤تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٠).
٥وعن البراء بن عازب رضي الله عنه (أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} قَالَ: أَهْلُ الْجَنَّةِ يَأكُلُونَ مِنْهَا قِيَامًا وَقُعُودًا وَمُضْطَجِعِينَ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ شَاءُوا). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٥٣).

▪ الباب السادس والأربعون في زرْع الجنَّة

قال تعالى: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الزخرف: ٧١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ -وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ-: (أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ). فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا؛ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)١، وهذا يدلَّ على أنَّ في الجنَّة زرعًا، وذلك البذر منه، وهذا أحسن: أنْ تكون الأرضُ معمورةً بالشجر والزرع.

فإنْ قيل: فكيف استأذن هذا الرجل ربَّه في الزرع؛ فأخبره أنه في غُنية عنه؟ قيل: لعله استأذنه في زرْع يباشره ويزرعه بيده؛ وقد كان في غُنية عنه وقد

١صحيح البخاري (٢٣٤٨).

كُفي مؤنتَه.

ولا أعلم ذكْر الزرع في الجنَّة إلَّا في هذا الحديث. والله أعلم.

▪ الباب السابع والأربعون: في ذكر أنهار الجنَّة وعيونها وأصنافها ومجراها الذى تجري عليه

قد تكرر في القرآن في عدة مواضع قولُه تعالى: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البقرة: ٢٥]، وفي موضع: {تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة: ١٠٠]، وفي موضع: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف: ٤٣]، وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها حقيقية.

الثاني: أنها جارية لا واقفة.

الثالث: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا[١].

وقال تعالى: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ}.

وقال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا

١كما في قوله تعالى عن جريان الأنهار تحت الناس في الدنيا: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ} [الأنعام: ٦]، وقوله أيضًا عن قول فرعون: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي} [الزخرف: ٥١].

مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥].

فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا، فآفة الماء أنْ يأسن ويأجن مِن طول مكثه، وآفة اللبن أنْ يتغير طعمه إلى الحموضة، وأنْ يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته.

وهذا مِن آيات الرب تعالى أنْ تجري أنهارٌ مِن أجناس لم تجرِ العادة في الدنيا بإجرائها، ويجريها في غير أخدود، وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنَّة جميع آفات خمر الدنيا مِن الصداع والغول والإنزاف وعدم اللذة، فهذه خمس آفات[١] مِن آفات خمر الدنيا.

فإنْ قيل: فقد وصف سبحانه الأنهارَ بأنها جارية؛ ومعلوم أنَّ الماءَ الجاري لا يأسن! فما فائدة قوله: {غَيْرِ آسِنٍ}؟ قيل: الماء الجاري -وإنْ كان لا يأسن- ؛ فإنه إذا أُخذ منه شيءٌ وطال مكثه أسن، وماء الجنَّة لا يعرض له ذلك ولو طال مكثه ما طال.

وتأملِ اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس، فهذا لشربهم

١قد ذكرها أربعة هنا!

وطهورهم، وهذا لقوتهم وغذائهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لشفائهم ومنفعتهم. والله أعلم.

وأنهار الجنَّة تتفجر مِن أعلاها ثم تنحدر نازلة إلى أقصى درجاتها، كما روى البخاري في صحيحه مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ؛ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ؛ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ -أُرَاهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ))١.

وروى الترمذي نحوه مِن حديث معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت ولفظ حديث عبادة: ((فِي الجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ الأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ العَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ))٢.

وفي معجم الطبراني عن سمرة رضي الله عنه مرفوعًا ((الْفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا وَأَوْسَطُهَا، وَمِنْهَا تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ))٣.

١صحيح البخاري (٢٧٩٠).
٢صحيح. الترمذي (٢٥٣١). صحيح الجامع (٤٢٤٤).
٣صحيح. الطبراني في الكبير (٧/ ٢١٣). صحيح الجامع (٤٢٨٣).

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما مرفوعًا ((رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى؛ فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى. وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ؛ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ؛ فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ))١.

وفي صحيحه أيضًا مِن حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ؛ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ؛ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ؛ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ -أَوْ طِيبُهُ- مِسْكٌ أَذْفَرُ٢))٣.

وعند الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا ((الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ))٤.

[وفي صحيح البخاري (حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو بِشْرٍ، وَعَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

١صحيح البخاري (٣٨٨٧).
٢"الذي لا خلْط فيه، أو الشديد الريح". فيض القدير (٣/ ٣٦٣).
٣صحيح البخاري (٦٥٨١).
٤صحيح. الترمذي (٣٣٦١). صحيح الجامع (٤٦١٥).

قَالَ: الكَوْثَرُ١ : الخَيْرُ الكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. قَالَ أَبُو بِشْرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدٍ: إِنَّ أُنَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ؟ فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهَرُ الَّذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ]٢.

وعند الترمذي مِن حديث معاوية بن حَيدة رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَحْرَ المَاءِ وَبَحْرَ العَسَلِ وَبَحْرَ اللَّبَنِ وَبَحْرَ الخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ بَعْدُ))٣.

وعند الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْقِيَهُ اللَّهُ الْخَمْرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهَا فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْسُوَهُ اللَّهُ الْحَرِيرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهُ فِي الدُّنْيَا))٤.

وفي المسند مِن حديث أنس رضي الله عنه (أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: ١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ؛ فَإِذَا هُوَ نَهَرٌ يَجْرِي وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا، فَإِذَا حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، فَضَرَبْتُ

١"الكَوْثَر: العدَد الكثير، وَالخَير العَظِيم، وَالرَّجُلُ السَّخِيُّ". المعجم الوسيط (٢/ ٧٧٧).
٢صحيح البخاري (٦٥٧٨).
٣صحيح. الترمذي (٢٥٧١). صحيح الجامع (٢١٢٢).
٤حسن. الطبراني في الأوسط (٨٨٧٩). صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٦٥).

بِيَدِي إِلَى تُرْبَتِهِ؛ فَإِذَا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ، وَإِذَا حَصَاهُ اللُّؤْلُؤُ))١.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ٢، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ؛ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ))٣

وأمَّا العيون؛ فقد قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [الحجر: ٤٥].

وقال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} [الإنسان: ٥-٦].قال بعض السلف: معهم قضبان الذهب حيثما مالوا مالت معهم٤.

والأصح في معنى قوله: {يَشْرَبُ بِهَا} أنَّ الفعلَ مُضَمَّنٌ، ومعنى يشرب بها: أي يُروى بها، فلما ضمنه معناه عداه تعديته.

وقال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى

١صحيح. أحمد (١٣٥٧٨). الصحيحة (٢٥١٣).
٢"قوله: (سيحان وجيحان) نهران كبيران في تركيا، يمرُّ جيحان بالمصيصة، وسيحان بأذنه، ويصبان في بحر الروم، وهما غير جيحون وسيحون، فجيحون هو الحد بين أفغانستان وأزبكستان، يمر ببلخ وترمذ وآمل ودرغان، وتصب في بحيرة خوارزم، ويعرف الآن بآموداريا، وسيحون نهر آخر كبير بما وراء نهر جيحون، قرب خجنده وخوقند وقبل طاشقند، ويعرف بسير دريا، وظاهر معنى كون هذه الأنهار مِن الجنَّة أنَّها كانت أصلًا في الجنَّة وأنزلت منها على الأرض.
ويحتمل التأويل؛ وهو أنَّ البلاد التي تقع فيها هذه الأنهار يَعمُّها ويغلبها الإسلام". منة المنعم في شرح صحيح مسلم للمباركفوري (٤/ ٣٢٢).
٣صحيح مسلم (٢٨٣٩).
٤يعني: على معنى أنها تتبعهم أينما ذهبوا.

سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: ١٧، ١٨] فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صِرفًا أنَّ شراب الأبرار يمزج منها لأنَّ أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله فأخلص شرابهم، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم،

ونظير هذا قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: ٢٢ - ٢٨] فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين: بالكافور في أول السورة، والزنجبيل في آخرها؛ فإنَّ في الكافور مِن البرد وطيب الرائحة، وفي الزنجبيل مِن الحرارة وطيب الرائحة ما يحدث لهم باجتماع الشرابين ويجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى أكمل وأطيب وألذ مِن كل منهما بانفراده، ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر، وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة والزنجبيل في آخرها؛ فإنَّ شرابهم مزج أولًا بالكافور وفيه مِن البرد ما يجيء الزنجبيل بعده فيعدله، والظاهر أنَّ الكأس الثانية غير الأولى، وأنهما نوعان لذيذان مِن الشراب؛ أحدهما مزج بكافور والثاني مزج بزنجبيل.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه أخبر عن مزج شرابهم بالكافور وبرْدِه في مقابلة ما وصفهم به مِن حرارة الخوف والإيثار والصبر والوفاء بجميع الواجبات التي نبَّه على وفائهم بأضْعَفِها وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها وهو ما أوجبه الله عليهم، ولهذا قال {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢]؛ فإنَّ في الصبر مِن الخشونة وحبس النفس عن شهواتها ما اقتضى أنْ يكون في جزائهم مِن سعة الجنَّة ونعومة الحرير ما يقابل ذلك الحبس والخشونة.

وجمع لهم بين النضرة والسرور؛ وهذا جمال ظواهرهم وهذا حال بواطنهم؛ كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام وبواطنهم بحقائق الإيمان.

ونظيره قوله في آخر السورة: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١] فهذه زينة الظاهر، ثم قال: {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً} فهذه زينة الباطن المطهِّر لهم مِن كل أذى ونقص.

ونظيره: قوله تعالى لأبيهم آدم عليه السلام: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [طه: ١١٨، ١١٩] فضَمِن له أنْ لا يصيبه

ذلُّ الباطن بالجوع ولا ذلُّ الظاهر بالعري، وأنْ لا يناله حرُّ الباطن بالظمأ ولا حرُّ الظاهر بالضحى.

ونظير هذا ما عدَّدَه على عباده مِن نعمةٍ أنه أَنزل عليهم لباسًا يواري سوآتهم ويزين ظواهرهم، ولباسا آخر يزين بواطنهم وقلوبهم وهو لباس التقوى، وأخبر أنه خيرُ اللباسين.

وقريب مِن هذا إخباره أنه زيَّن السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظًا مِن كل شيطان مارد، فزيَّن ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحراسة.

وقريب منه أمْرُه مَن أراد الحج بالزاد الظاهر ثم أخبر أنَّ خيرَ الزاد الزادُ الباطن وهو التقوى.

وقريب منه: قول امرأة العزيز عن يوسف: {فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ} [يوسف: ٣٢] فأرتهن حسْنَه وجماله، ثم قالت: {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} [يوسف: ٣٢] فأخبرتهن بجمال باطنه وزينته بالعفة، وهذا كثير في القرآن لمتأمله.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية١]

١وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((أَنْهَارُ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ جِبَالِ مِسْكٍ)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٥٧).

▪ الباب الثامن والأربعون: في ذكر طعام أهل الجنَّة وشرابهم ومصرفه

قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المرسلات: ٤١ – ٤٣].

وقال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} [الحاقة: ١٩ – ٢٤].

وقال تعالى: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

وقال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: ٣٥].

وأيضًا عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ نَهَرًا طُولَ الْجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ الْعَذَارَى، قِيَامٌ مُتَقَابِلَاتٌ، وَيُغَنِّينَ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ يَسْمَعُهَا الْخَلَائِقُ، حَتَّى مَا يَرَوْنَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَذَّةً مِثْلَهَا)، قُلْنَا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا ذَاكَ الْغِنَاءُ؟ قَالَ: (إِنْ شَاءَ اللهُ التَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَالتَّقْدِيسُ، وَثَنَاءٌ عَلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٧٢).

وقال تعالى: {وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} [الطور: ٢٢، ٢٣].

وقال تعالى: {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٥، ٢٦].

وفي صحيح مسلم مِن حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ)، قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: (جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ))١.

وفي المسند (عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ؟ -وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنْ أَقَرَّ لِي بِهَذِهِ خَصَمْتُهُ-. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ)، قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ! قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

١صحيح مسلم (٢٨٣٥).

(حَاجَةُ أَحَدِهِمْ عَرَقٌ يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ؛ فَإِذَا الْبَطْنُ قَدْ ضَمُرَ))١.

وفي الصحيحين مِن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا ((تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً، يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ: نُزُلًا لِأَهْلِ الجَنَّةِ))٢.

وعند الترمذي مِن حديث أنس رضي الله عنه (قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا الكَوْثَرُ؟ قَالَ: (ذَاكَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ اللَّهُ -يَعْنِي فِي الجَنَّةِ- أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، فِيهَا طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الجُزُرِ٣)، قَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذِهِ لَنَاعِمَةٌ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا))٤.

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: {وَكَأْسٍ مِنْ

١صحيح. أحمد (١٩٢٦٩) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه. صحيح الجامع (١٦٢٧).
٢صحيح البخاري (٦٥٢٠).
٣واحدها جزور: وهي الإبل.
٤صحيح. الترمذي (٢٥٤٢). الصحيحة (٢٥١٤).

مَعِينٍ} يقول: الخمر لا فيها غول، ويقول: ليس فيها صداع، وفي قوله تعالى: {وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} يقول: لا تُذْهِب عقولَهم، وقوله تعالى: {وَكَأْساً دِهَاقاً} يقول: ممتلئة، وقوله: {رَحِيقٍ مَخْتُومٍ} يقول: الخمر ختم بالمسك، وقال علقمة عن ابن مسعود {خِتَامُهُ مِسْكٌ} [المطففين: ٢٦] قال: خلْطُه وليس بخاتم ثم يختم.

قلت: يريد -والله أعلم- أنَّ آخرَه مسك يخالطه؛ فهو مِن الخاتمة وليس مِن الخاتم.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: {وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ} قال: تمزج لأصحاب اليمين، ويشربها المقربون صرفًا، وكذلك قال ابن عباس: يشرب منها المقربون صرفًا، وتمزج لمن دونهم[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: {كَأْسًا دِهَاقًا} [النبأ: ٣٤]: "هِيَ الْمُتَتَابِعَةُ الْمُمْتَلِئَةُ. قَالَ: وَرُبَّمَا سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ يَقُولُ: اسْقِنَا وَادْهَقْ لَنَا"[2].

١قال ابن القيم رحمه الله: "وقال مجاهد: {خِتَامُهُ مِسْكٌ} يقول: طينه. وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، ولفظ الآية أوضح منه. وكأنه -والله أعلم- يريد ما يبقى في أسفل الإناء مِن الدردي".

٢صحيح. مستدرك الحاكم (٣٨٩١)، وقال الذهبي رحمه الله: على شرط البخاري.

وأما {سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: ١٨] فهي كلمة مفردة، وهي اسم للعين نفسها باعتبار صفتها، ولقد شفى قتادة ومجاهد في اشتقاق اللفظة فقال قتادة: سلسة لهم يصرفونها حيث شاءوا، وهذا مِن الاشتقاق الأكبر. وقال مجاهد: سلسة السيل، حديدة الجرية.

[مسألة لطيفة]:

فإنْ قيل: فأين يُشوى اللحم وليس في الجنَّة نار؟!

فقد أجاب عن هذا بعضهم بأنه يشوى بـ: "كن"، وأجاب آخرون: بأنه يشوى خارج الجنَّة ثم يؤتى به إليهم. والصواب: أنه يشوى في الجنَّة بأسباب قدَّرها العزيز الحكيم لإنضاجه وإصلاحه كما قدَّر هناك أسبابًا لإنضاج الثمر والطعام؛ على أنه لا يمتنع أنْ يكون فيها نار تُصْلِحُ ولا تُفْسِد شيئًا.

وقد صح عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: "وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ[١]"

والمجامر: جمع مجمرة، وهو البخور الذي يتبخر بإحراقه، والأَلُوة: العود الطري، فأخبر أنهم يتجمرون به أي: يتبخرون بإحراقه لتسطع لهم رائحته.

وقد أخبر سبحانه أنَّ في الجنَّة ظلالًا، والظلال لا بد أنْ تفيء مما يقابلها،

---

[١] "الألوة: العود الذي يُبخر به". فتح الباري (٦/ ٣٢٤).

فقال: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ} [يس: ٥٦]، وقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ} [المرسلات: ٤١]، وقال: {وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء: ٥٧]، فالأطعمة والحلوى والتجمر تستدعي أسبابًا تتم بها، والله سبحانه خالق السبب والمسبَّب، وهو رب كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو، وكذلك جعل لهم سبحانه أسبابًا تصرف الطعام مِن الجشاء والعرق الذي يفيض مِن جلودهم، فهذا سبب إخراجه وذاك سبب إنضاجه، وكذلك جعل في أجوافهم مِن الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحًا وجشاء، وكذلك ما هناك مِن الفواكه والثمار يخلق لها مِن الحرارة ما ينضجها، ويجعل سبحانه أوراق الشجر ظلالها، فربُّ الدنيا والآخرة واحد، وهو الخالق للأسباب والحكم، ما يخلقه في الدنيا والآخرة والأسباب مظهر أفعاله وحكمته، ولكنها تختلف، ولهذا يقع التعجب مِن العبد لورود أفعاله سبحانه على أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة، وربما حمله ذلك على الإنكار والكفر! وذلك محض الجهل والظلم، وإلَّا فليست قدرته سبحانه وتعالى مقصرة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته، وليس هذا بأهون عليه مِن ذلك.

ولعل النشأة الأولى التي أنشأها الرب سبحانه وتعالى فيها بالعيان والمشاهدة أعجب مِن النشأة الثانية التي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب، ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار مِن بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجبُ عند العقل مِن إخراجها مِن بين تربة الجنَّة ومائها وهوائها، ولعل إخراج هذه الأشربة -التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة مِن بين فرث ودم ومِن قيء ذباب- أعجب مِن إجرائها أنهارًا في الجنَّة بأسباب أخر، ولعل إخراج جوهري الذهب والفضة مِن عروق الحجارة مِن الجبال وغيرها أعجب مِن إنشائها هناك مِن أسباب أخر، ولعل إخراج الحرير مِن لعاب دودة القزِّ وبنائها على أنفسها القباب البيض والحمْر والصفر أحكم بناء أعجب مِن إخراجه مِن أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشأ منها، ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض على ظهور السحاب أعجب مِن جريانها في الجنَّة في غير أخدود.

وبالجملة؛ فتأملْ آيات الله التي دعا عباده إلى التفكر فيها وجعلها آيات دالة على كمال قدرته وعلْمِه ومشيئته وحكمته وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية، ثم وازن بينهما وبين ما أخبر به مِن أمر الآخرة والجنَّة والنار؛ تجد

هذه أدلَّ شيء على تلك شاهدة لها، وتجدهما مِن مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد؛ فبعدًا لقوم لا يؤمنون.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية١]

١وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه (إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ لَيَشْتَهِي الطَّيْرَ مِنْ طُيورِ الْجَنَّةِ؛ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ مَشْوِيًّا). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٧٦).
وأيضًا أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه(إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَشْتَهِي الشَّرَابَ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ؛ فَيَجِيءُ الْإِبْرِيقُ فَيَقَعُ فِي يَدِهِ فَيَشْرَبُ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى مَكَانِهِ). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٧٧).

▪ الباب التاسع والأربعون: في ذكر آنيتهم التي يأكلون فيها ويشربون، وأجناسها وصفاتها

قال تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ} [الزخرف: ٧١]، فالصحاف جمع صحفة، قال الكلبي: بقصاع مِن ذهب، وقال الليث: الصحفة قصعة مسطحة عريضة.

قال تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الواقعة: ١٧، ١٨] الأباريق: هي الأكواب التي لها خراطيم؛ فإنْ لم يكن لها خراطيم ولا عرى فهي أكواب، وإبريق: إفعيل مِن البريق، وهو الصفاء، فهو الذي يبرق لونه مِن صفائه، ثم سمى كل ما كان على شكله إبريقًا وإنْ لم يكن صافيًا.

وأباريق الجنَّة مِن الفضة في صفاء القوارير، يرى مِن ظاهرها ما في باطنها، والعرب تسمي السيف إبريقًا لبريق لونه، وامرأة إبريق إذا كانت براقة.

وقال تعالى: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} [الإنسان: ١٥، ١٦] فالقوارير هي الزجاج؛ فأخبر سبحانه وتعالى عن مادة تلك الآنية أنها مِن الفضة وأنها بصفاء الزجاج

وشفافيته، وهذا مِن أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير مِن زجاج فقال: {قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ}، قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي والشعبي: قوارير الجنَّة مِن الفضة، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير.

وقوله: {قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} التقدير: جَعْلُ الشيء بقدر مخصوص، فقدرت صناعة هذه الآنية على قدر ريِّهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب، فلو نقص عن ريِّه لنقص التذاذه، ولو زاد حتى يشمئز منه؛ حصل له ملالة وسآمة مِن الباقي.

وأما الكأس؛ فقال أبو عبيدة: هو الإناء بما فيه، وقال أبو إسحاق: الكأس: الإناء إذا كان فيه خمر، ويقع الكأس لكل إناء مع شرابه، والمفسرون فسروا الكأس بالخمر، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل؛ حتى قال الضحاك: كل كأس في القرآن فإنما عُني به الخمرُ، وهذا نظر منهم إلى المعنى والمقصود؛ فإنَّ المقصود ما في الكأس لا الإناء نفسه، وأيضًا فإنَّ مِن الأسماء ما يكون اسمًا للحال والمحل مجتمعين ومنفردين، كالنهر والكأس؛ فإنَّ النهر اسم للماء ولمحله معًا ولكل منهما على انفراده.

وفي الصحيحين مِن حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه مرفوعًا:

((جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ))١.

وفي الصحيحين أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتْفُلُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ؛ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ))٢.

وفي الصحيحين أيضًا من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا ((لاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلاَ تَلْبَسُوا الحَرِيرَ وَالدِّيبَاجَ؛ فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ))٣.

١صحيح البخاري (٤٨٧٨).
٢صحيح مسلم (٢٨٣٤).
٣صحيح البخاري (٥٦٣٣).

وفي مسند أبي يعلى من حديث أنس رضي الله عنه (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُعْجِبُهُ الرُّؤْيَا، فَرُبَّمَا رَأَى الرَّجُلُ الرُّؤْيَا فَسَأَلَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ؛ فَإِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ مَعْرُوفًا كَانَ أَعْجَبَ لِرُؤْيَاهُ عَلَيْهِ. فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيتُ فَأُخْرِجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ وَجْبَةً ارْتَجَّتْ لَهَا الْجَنَّةُ، فَنَظَرْتُ؛ فَإِذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، وَفُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَسَمَّتِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا -كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ بَعَثَ سَرِيَّةً بِمِثْلِ ذَلِكَ-، فَجِيءَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ طُلْسٌ[١]، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُمْ، فَقِيلَ: اذْهَبُوا بِهِمْ إِلَى نَهَرِ الْبَيْذَجِ -أَوِ الْبَيْرِحِ-[٢]، قَالَ: فَغُمِسُوا فِيهِ؛ فَخَرَجُوا وَوُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَأُتُوْا بِصَفْحَةٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بُسْرَةٌ، فَأَكَلُوا مِنْ بُسْرِهِ مَا شَاءُوا، فَمَا يَقْلِبُونَهَا مِنْ وَجْهٍ إِلَّا أَكَلُوا مِنَ الْفَاكِهَةِ مَا أَرَادُوا، وَأَكَلْتُ مَعَهُمْ. فَجَاءَ الْبَشِيرُ مِنْ تِلْكَ السَّرِيَّةِ، فَقَالَ: كَانَ مِنْ أَمْرِنَا كَذَا وَكَذَا، فَأُصِيبَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرْأَةَ فَقَالَ:

١"الأطلس: الوسخ الدنس الثياب، مشبه بالذئب في غبرة ثيابه". تاج العروس (١٦/ ٢٠٢).

٢في ضبط هذه اللفظة اختلاف بين المراجع، وعلى كل حال؛ فإنَّ "البيذخ: الرجل العظيم الشأن". معجم متن اللغة (١/ ٢٥١).

(قُصِّي رُؤْيَاكِ) فَقَصَّتْهَا، وَجَعَلَتْ تَقُولُ: جِيءَ بِفُلَانٍ، وَجِيءَ بِفُلَانٍ -كَمَا قَالَ-)١.

١صحيح. مسند أبي يعلى (٣٢٨٩). وصححه الشيخ الألباني في التعليقات الحسان (٦٠٢٢).

▪ الباب الخمسون: في ذكر لباسهم وحليهم ومناديلهم وفرشهم وبسطهم ووسائدهم ونمارقهم وزرابيِّهم

قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ} [الدخان: ٥١ - ٥٣].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [الكهف: ٣٠، ٣١].

قال جماعة مِن المفسرين: السندس ما رقَّ مِن الديباج، والإستبرق ما غلُظ منه. وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظُ ولكنَّ المراد به الصفيق.

وقال الزجاج: هما نوعان مِن الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألْين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

وقال تعالى: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: ٢٣].

مسألة: وهي أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أخبر أنَّ لباس أهل الجنَّة حرير، وصحَّ

عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنه قال: ((مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ))١، وقد اختلف في المراد بهذا الحديث، فقالت طائفة مِن السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنَّة ويلبس غيره مِن الملابس، قالوا وأمَّا قوله تعالى: {وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} فمِن العام المخصوص، وقال الجمهور: هذا مِن الوعيد الذي له حكْم أمثاله مِن نصوص الوعيد التي تدلُّ على أنَّ الفعلَ مقتضٍ لهذا الحكم وقد يتخلف عنه لمانع،

وقد دلَّ النص والإجماع على أنَّ التوبةَ مانعةٌ مِن لحوق الوعيد، ويمنع مِن لحوقه أيضًا الحسناتُ الماحية، والمصائبُ المكفرة، ودعاءُ المسلمين، وشفاعةُ مَن يأذن الله له في الشفاعة فيه، وشفاعةُ أرحم الراحمين إلى نفسه؛ فهذا الحديث نظير الحديث الآخر ((مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ))٢.

وقال تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢].

وقال: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} [الإنسان: ٢١].

١صحيح البخاري (٥٨٣٣) من حديث ابن الزبير رضي الله عنه مرفوعًا .
٢صحيح. ابن ماجه (٣٣٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، واللفظ له.
قلتُ: إلَّا أنَّ الحديث في الصحيحين من طريق ابن عمر رضي الله عنهما فيه ((ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا)) كما في البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

وتأملْ ما دلت عليه لفظة "عاليهم" مِن كون ذلك اللباس ظاهرًا بارزًا يُجَمِّلُ ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وتأملْ كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة مِن اللباس والحلي كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة -كما تقدم قريبًا-، فجمَّل البواطنَ بالشراب الطهور، والسواعدَ بالأساور، والأبدانَ بثياب الحرير.

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [الحج: ٢٣].

[والمعنى يحتمل كون اللؤلؤ مِن جملة الحلية معطوفًا على الأساور، ويحتمل] أنْ يكون لهم أساور مِن ذهب وأساور مِن لؤلؤ١، ويحتمل أنْ تكون الأساور مركبة مِن الأمرين معًا -الذهب المرصع باللؤلؤ-. والله أعلم بما أراد.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ

١وهذا المعنى على قراءة الجر.

مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ))١.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ))٢.

وفيه أيضًا عنه ((قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ٣))٤.

وقوله: "لا تبلى ثيابُه" الظاهر أنَّ المرادَ به الثيابُ المعينةُ؛ لا يلحقها البلى، ويحتمل أنْ يراد به الجنسُ، بل لا يزال عليه الثياب الجدد كما أنها لا ينقطع أكلها في جنسه، بل كل مأكول يخلفه أخر. والله أعلم.

وعند الترمذي من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا ((«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالثَّانِيَةُ عَلَى لَوْنِ أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يَبْدُو

١صحيح مسلم (٢٥٠).
٢صحيح مسلم (٢٨٣٦).
٣"معناها: دَعْ عنك ما أطلعكم عليه؛ فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. وكأنه أضرب عنه استقلالًا له في جنب ما لم يُطلع عليه". شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٦٦).
٤صحيح مسلم (٢٨٢٤).

مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا))١.

وعند أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((قِيدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا))، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: مَا النَّصِيفُ؟ قَالَ: الْخِمَارُ))٢.

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ((أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ طُوبَى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ، قَالَ: (طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي)، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: (شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ؛ ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا))٣.

وفي الحديث عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ ((دَخَلْتُ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا وَاقِدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، قَالَ: إِنَّكَ بِسَعْدٍ لَشَبِيهٌ، ثُمَّ بَكَى؛

١صحيح. الترمذي (٢٥٢٢). الصحيحة (١٧٣٦).
٢صحيح. أحمد (١٠٢٧٠)، تحت حديث الصحيحة (١٩٧٨).
٣صحيح. مسند أحمد (١١٦٧٣). التعليقات الحسان (٧١٨٦).

فَأَكْثَرَ الْبُكَاءَ، قَالَ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَى سَعْدٍ، كَانَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ جَيْشًا إِلَى أُكَيْدِرِ دُومَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بِجُبَّةٍ دِيبَاجٍ مَنْسُوجٌ فِيهَا الذَّهَبُ، فَلَبِسَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ -قَبْلَ أَنْ يَنْهَى عَنْ الْحَرِيرِ-، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ - فَقَامَ أَوْ قَعَدَ-، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْمِسُونَهَا، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا كَالْيَوْمِ ثَوْبًا قَطُّ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: (أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا؟) قَالُوا: مَا رَأَيْنَا ثَوْبًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: (لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِمَّا تَرَوْنَ))٢١.

ومِن ملابسهم التيجان على رؤوسهم

روى الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ أَنَا

١صحيح. رواه البخاري ومسلم وغيرهما، منقول مِن الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٣٣) بألفاظ معزوة إلى مصادرها؛ فلتراجع هناك.

٢قال ابن القيم رحمه الله: "ولا يخفى ما في ذكر سعد بن معاذ بخصوصه هاهنا؛ فإنه كان في الأنصار بمنزلة الصديق في المهاجرين، واهتز لموته العرش، وكان لا يأخذه في الله لومة لائم، وختم الله له بالشهادة، وآثر رضا الله ورسوله على رضا قومه وعشيرته وخلفائه، ووافق حكمُه الذي حكم به حكمَ الله فوق سبع سماوات، ونعاه جبريل إلى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ موته؛ فحقَّ له أنْ تكون مناديلُه التي يمسح بها يديه في الجنَّة أحسن مِن حُلَلِ الملوك".

الَّذِي كُنْتُ أُسْهِرُ لَيْلَكَ، وَأُظْمِئُ هَوَاجِرَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَأَنَا لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ. فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَانِ -لَا يَقُومُ لَهُمَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا-! فَيَقُولَانِ: يَا رَبُّ؛ أَنَّى لَنَا هَذَا؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِتَعْلِيمِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْقُرْآنِ يُقَالُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اقْرَأْ، وَارْقَ فِي الدَّرَجَاتِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ مَعَكَ[1]))[2].

وأمَّا الفُرُشُ؛ فقد قال تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤].

وقال تعالى: {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٤]، فوصف الفُرُشَ بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أمرين:

---

[1] فائدة: قال الشيخ الألباني رحمه الله تحت حديث الصحيحة (٢٢٤٠): "واعلمْ أنَّ المرادَ بقوله: ((صاحبُ القرآنِ)) حافظُه عن ظهر قلب على حدِّ قوله صلَّى الله عليه وسلَّم ((يَؤُمُّ القومَ أَقرؤهم لكتابِ اللهِ)) أي: أحفظُهم. فالتفاضل في درجات الجنَّة إنما هو على حسب الحفظ في الدنيا، وليس على حسب قراءته يومئذ واستكثاره منها - كما توهم بعضُهم-! ففيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لحافظ القرآن، لكنْ بشرط أنْ يكون حفظُه لوجه الله تبارك وتعالى، وليس للدنيا والدرهم والدينار! وإلَّا فقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أكثرُ منافقي أمتي قرَّاؤُها)) وقد مضى تخريجه برقم (٧٥٠)".

[2] صحيح. الطبراني في الأوسط (٥٧٦٤). الصحيحة (٢٨٢٩).

قلتُ: وفي المسند (٢٢٩٥٠) بلفظ ((فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ -هَذًّا كَانَ، أَوْ تَرْتِيلًا-))، قال الشيخ الألباني رحمه الله معلقًا عليه: "قال الهيثمي (١٥٩/٧): "ورجاله رجال الصحيح". قلت: وهو كما قال، لكن بشيرًا هذا: [صدوق] لين الحديث - كما قال في التقريب-". أصل صفة الصلاة (٢/ ٥٦٥).

أحدهما: أنَّ ظهائرها أعلى وأحسن مِن بطائنها، لأنَّ بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

الثاني: أنَّها فُرُشٌ عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة.

وأمَّا البُسُطُ والزرابي؛ فقد قال تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦].

وقال تعالى: {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} [الغاشية: ١٣ - ١٦].

أمَّا الرفرف؛ فأصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب، فمنه الرفُّ في الحائط، ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، وكل ما فضل مِن شيء فثنى وعطف فهو رفرف.

وأمَّا العبقريُّ؛ قال الليث: عبقر موضع بالبادية كثير الجن؛ يقال: كأنهم جن عبقر، وإنما أصل هذا -فيما يقال- إنه نسب إلى عبقر وهي أرض يسكنها الجن؛ فصار مثلًا منسوبًا إلى شيء رفيع، وهذا القول هو الصحيح في العبقري، وذلك أنَّ العربَ إذا بالغت في وصف شيء نسبته إلى الجن أو شبهته بهم، وذلك أنهم يعتقدون في الجن كلَّ صفة عجيبة، وأنهم يأتون بكل

أمر عجيب.

وتأملْ كيف وصف اللهُ سبحانه وتعالى الفُرُشَ بأنها مرفوعة، والزرابيَّ بأنها مبثوثة، والنمارقَ بأنها مصفوفة، فرفْعُ الفُرُش دالٌّ على سمكها ولينها، وبثُّ الزرابيِّ دالٌّ على كثرتها وأنها في كل موضع؛ لا يختص بها صدر المجلس دون مؤخره وجوانبه، وصفُّ المساند يدلَّ على أنها مهيأة للاستناد إليها دائمًا؛ ليست مخبأة تصفُّ في وقت دون وقت. والله أعلم.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية١]

١ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مرفوعًا ((لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرًا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ خَوَافِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَتْ أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءُهُ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٣٤).

▪ الباب الحادي والخمسون: في ذكر خيامهم وسررهم وأرائكهم وبشخاناتهم[1]

قال تعالى: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} [الرحمن: ٧٢].

وفي الصحيحين مِن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا))[2]، وهذه الخيم غير الغرف والقصور، بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار.

وأمَّا السُّرَرُ؛ فقال تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} [الطور: ٢٠]

وقال تعالى: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} [الواقعة: ١٣ – ١٦].

وقال تعالى: {فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ} [الغاشية: ١٣].

فأخبر تعالى عن سُرَرِهم بأنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض ولا بعيدًا مِن بعض، وأخبر أنها موضونة، والوضن في اللغة

---

[1] وهي الحَجَلة، وستأتي.
[2] صحيح مسلم (٢٨٣٨).

النضيد والنسج المضاعف، يقال: وضن فلان الحجر أو الآجر بعضه فوق بعض؛ فهو موضون.

وأمَّا الأرائك؛ فهي جمع أريكة، قال مجاهد عن ابن عباس: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ} قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحَجَلة١.

١"الحَجَلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس، وستر يضرب للعروس في جوف البيت". المعجم الوسيط (١/ ١٥٨).

الباب الثاني والخمسون: في ذكر خدمهم وغلمانهم

قال تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الواقعة: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} [الإنسان: ١٩].

وقوله: "مخلدون" يعني: لا يهرمون ولا يتغيرون، وقال آخرون: "مخلدون" يعني: مقرطون مسورون[١]، أي: في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور، وجمعت طائفة بين القولين وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة، فمن قال: "مقرطون" أراد هذا المعنى؛ أنَّ كونهم ولدان أمرٌ لازم لهم.

وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لِمَا فيه مِن البياض وحسن الخلقة، وفي كونه منثورا فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين، بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم

---

[١] "قال ابن الأعرابي -في قوله: {ولدان مخلدون}-: مقرطون بالخَلَدة، وجمعها خَلَدٌ، وهي القِرطة". تهذيب اللغة (٧/ ١٢٥).

والثانية: أنَّ اللؤلؤَ إذا كان منثورًا ولا سيما على بساط مِن ذهب أو حرير كان أحسن لمنظره وأبهى مِن كونه مجموعًا في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان هل هم مِن ولدان الدنيا أم أنشأهم الله في الجنَّة إنشاء، على قولين، والأشبه أنَّ هؤلاء الولدان مخلوقون مِن الجنَّة كالحور العين؛ خدمًا لهم وغلمانًا، كما قال تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ}، وهؤلاء غير أولادهم؛ فإن مِن تمام كرامة الله تعالى لهم أنْ يجعلَ أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلمانا لهم.

وإذا تأملتَ لفظة "الولدان" ولفظة "ويطوف عليهم" واعتبرتها بقوله: "ويطوف عليهم غلمان لهم" وضممتَ ذلك إلى حديث أبي سعيد١؛ علمتَ أنَّ الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنَّة خدمًا لأهلها. والله أعلم.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية٢]

١يريد حديث ((مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ يُرَدُّونَ بَنِي ثَلَاثِينَ فِي الجَنَّةِ لاَ يَزِيدُونَ عَلَيْهَا أَبَدًا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ)). ضعيف. الترمذي (٢٥٦٢). ضعيف الجامع (٥٨٥٢).

٢عن أبي أيوب عن ابن عمرو رضي الله عنهما (إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا مَنْ يَسْعَى إِلَيْهِ أَلْفُ خَادِمٍ، كُلُّ خَادِمٍ عَلَى عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ. قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا}). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٦٦).

▪ الباب الثالث والخمسون: في ذكر نساء أهل الجنَّة وسراريهم وأصنافهن، وحسنهن وأوصافهن وجمالهن -الظاهر والباطن- الذي وصفهن الله تعالى به في كتابه

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥].

فتأملْ جلالةَ المبشِّر ومنزلته وصدقه، وعظمةَ مَن أرسله إليك بهذه البشارة، وقدْرَ ما بشرك به وضمنه لك على أسهل شيء عليك وأيسره.

وجمَع سبحانه في هذه البشارة بين نعيمِ البدن بالجنات وما فيها مِن الأنهار والثمار، ونعيمِ النفس بالأزواج[١] المطهرة، ونعيمِ القلب وقرةِ العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

والمطهَّرة: مَن طهُرت مِن الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون مِن نساء الدنيا، وطهَّر مع ذلك باطنَها مِن

---

١ فائدة:
قال ابن القيم رحمه الله: "والأزواج جمْع زوج، والمرأة زوج للرجل وهو زوجها، هذا هو الأفصح، وهو لغة قريش، وبها نزل القرآن كقوله: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة: ٣٥]، ومِن العرب مَن يقول: زوجة! وهو نادر لا يكادون يقولونه".

الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهَّر لسانها مِن الفحش والبذاء، وطهَّر طرْفَها مِن أنْ تطمح به إلى غير زوجها، وطُهِّرت أثوابُها مِن أنْ يعرض لها دنس أو وسخ.

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} [الدخان: ٥١ – ٥٦].

فجَمع لهم بين حسنِ المنزل، وحصولِ الأمن فيه مِن كل مكروه، واشتمالِه على الثمار والأنهار، وحسنِ اللباس، وكمالِ العشرة لمقابلة بعضهم بعضًا، وتمامِ اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمْنِهم مِن انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختامُ ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتًا.

والحُور: جمع حوراء، وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

والصحيح أنَّ الحُور مأخوذ مِن الحَور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة

سوادها.

والعِين: جمع عَيناء، وهي العظيمة العين مِن النساء، والصحيح أنَّ العِين: اللاتي جمعت أعينُهن صفات الحسن والملاحة١.

وقوله تعالى: {وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ} [الدخان: ٥٤].

لفظ التزويج يدل على النكاح -كما قال مجاهد: أنكحناهم الحور-، ولفظ الباء يدل على الاقتران والضم، وهذا أبلغ مِن حذفها. والله أعلم.

وقال تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٥٦ - ٥٨].

وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع: أحدها: هذا، والثاني قوله

١فائدة:
قال ابن القيم رحمه الله: "ومِن محاسن المرأة اتساع عينها في طول، وضيق العين في المرأة مِن العيوب، وإنما:
١- يستحب الضيق منها في أربعة مواضع: فمها، وخرْق أذنها وأنفها، وما هنالك.
٢- ويستحب السعة منها في أربعة مواضع: وجهها، وصدرها، وكاهلها -وهو ما بين كتفيها-، وجبهتها.
٣- ويستحسن البياض منها في أربعة مواضع: لونها، وفرْقها، وثغرها، وبياض عينها.
٤- ويستحب السواد منها في أربعة مواضع: عينها، وحاجبها، وهدبها، وشعرها.
٥- ويستحب الطول منها في أربعة: قوامها، وعنقها، وشعرها، وبنانها.
٦- ويستحب القصر منها في أربعة -وهي معنوية-: لسانها، ويدها، ورجلها، وعينها؛ فتكون قاصرَ الطرف، قصيرةَ الرجل واللسان عن الخروج وكثرة الكلام، قصيرةَ اليد عن تناول ما يكره الزوج وعن بذله.
٧- وتستحب الدقة منها في أربعة: خصْرُها، وفرْقها، وحاجبها، وأنفها". حادي الأرواح (ص: ٢١٨).

تعالى في الصافات: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} [الصافات: ٤٨]، والثالث: قوله تعالى في ص: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} [ص: ٥٢]، والمفسرون كلهم على أنَّ المعنى قَصَرن طرْفَهن على أزواجهن؛ فلا يطمحن إلى غيرهم، وقيل: قصرن طرْفَ أزواجهن عليهن؛ فلا يدعهم حسنُهن وجمالُهن أنْ ينظروا إلى غيرهن، وهذا صحيح مِن جهة المعنى.

وأمَّا الأتراب فجمع تِرْب: وهو لدَة الإنسان[١]، قال ابن عباس وسائر المفسرين: مستويات على سنٍّ واحد وميلاد واحد+ وبنات ثلاث وثلاثين سنة، والمعنى من الإخبار باستواء أسنانهن: أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن، ولا ولائد لا يطقن الوطء.

وقوله تعالى: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]، قال أبو عبيدة: لم يمسهنَّ، وقال الفراء: الطمث الافتضاض، وهو النكاح بالتدمية.

وظاهر القران أنَّ هؤلاء النسوة لسن مِن نساء الدنيا، وإنما هنَّ مِن الحور العين، وأمَّا نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن،

١"يقال: هذه تِرْب هذه، أي: لدتها، وجمعه أتراب". تاج العروس (٢/ ٦٧).

والآية تدل على ذلك[1].

وقوله: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}.

قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان.

وقال تعالى في وصفهن: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}

فالله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدَّرات المصونات، وذلك أجمل في الوصف، ولا يلزم مِن ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين! كما أنَّ نساء الملوك ودونهم مِن النساء المخدَّرات المصونات لا يُمنعن أنْ يَخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه.

وقال تعالى: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ}.

فالخيرات: جمع خَيْرة، وهي مخففة مِن خيِّرة -كسيِّدة وليِّنة-، وحسان جمع حسنة، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، وحسان الوجوه.

---

[1] فائدة:
قال ابن القيم رحمه الله: "قال الإمام أحمد: والحور العين لا يمتن عند النفخة للصور لأنهن خلقن للبقاء، وفي الآية دليل لِما ذهب إليه الجمهور أنَّ مؤمنَ الجن في الجنَّة كما أنَّ كافرهم في النار، وبوب عليه البخاري في صحيحه فقال: باب ثواب الجن وعقابهم، ونص عليه غير واحد مِن السلف، قال ضمرة بن حبيب -وقد سئل هل للجن ثواب؟- فقال: نعم، وقرأ هذه الآية، ثم قال: الإنسيات للإنس، والجنيات للجن".

وقال تعالى: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٣٥ – ٣٨].

أعاد الضمير إلى النساء ولم يجرِ لهن ذكر؛ لأنَّ الفرش دلت عليهن إذ هي محلهن.

قال ابن عباس: يريد نساء الآدميات، وقال الكلبي ومقاتل: يعني نساء أهل الدنيا العُجز الشمط.

وفي الحديث (دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَائِشَةَ –وَعِنْدَهَا عَجُوزٌ–، فَقَالَ: (مَنْ هَذِهِ؟) قَالَتْ: إِحْدَى خَالَاتِي. قَالَ: (أَمَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْعُجَّزُ). فَدَخَلَ الْعَجُوزُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً خَلْقًا آخَرَ، يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ)، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} [الواقعة: ٣٥])[١].

وذكر مقاتل قولًا آخر –وهو اختيار الزجاج–: إنهن الحور العين التي ذكرهن، قيل: أنشأهن الله عزَّ وجلَّ لأوليائه، لم يقع عليهن ولادة، والظاهر

١صحيح. البعث والنشور للبيهقي (٣٤٣). الصحيحة (٢٩٨٧).

أنَّ المرادَ أنشأهنَّ اللهُ تعالى في الجنَّة إنشاء، ويدلُّ عليه وجوه:

أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} [الواقعة: ١٧] إلى قوله: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة: ٢٣] فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم والحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفراشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء مَن قبلهم خلقن في الجنَّة.

الثاني: أنه سبحانه قال: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى} [النجم: ٤٧]، وقوله: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى} [الواقعة: ٦٢].

الثالث: أن الخطاب بقوله: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} [الواقعة: ٧] إلى آخره للذكور والإناث، والنشأة الثانية عامة أيضًا للنوعين، وقوله: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأملْ تأكيده بالمصدر.

والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة، فلا يتوهم انفرادُ

الحور العين عنهن بما ذكر مِن الصفات، بل هنَّ أحقُّ به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين. والله أعلم.

وقوله: {عُرُبًا} [الواقعة: ٣٧] جمع عروب: وهن المتحببات إلى أزواجهن، قال ابن الأعرابي: العروب مِن النساء: المطيعة لزوجها المتحببة إليه، وقال أبو عبيدة: العروب الحسنة التبعل، قلت: يريد حسن مواقعها وملاطفتها لزوجها عند الجماع.

وذكر المفسرون في تفسير العُرُب أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات[١]، كل ذلك من ألفاظهم.

قلت: فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذا غاية ما يطلب مِن النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن.

وفي قوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦] إعلام بكمال اللذة بهن؛ فإنَّ لذةَ الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه لها فضل على لذته بغيرها، وكذلك هي أيضًا.

قال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} [النبأ: ٣١

---

[١] المتحببات الغنجات الشكلات ... هي ألفاظ متقاربة المعنى، ولكن يختلف اللفظ باختلاف اهل البلد.

- ٣٣].

فالكواعب: جمع كاعب، وهي الناهد، قال المفسرون: هنَّ الفَلِكات اللواتي تكعب ثديهن، وأصل اللفظة مِن الاستدارة، والمراد أنَّ ثديهن نواهدُ كالرمان، ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواهد وكواعب.

وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ -أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ- مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا -يَعْنِي الْخِمَارَ- خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))١.

وفي الصحيحين مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ٢))٣.

١البخاري (٦١٩٩).
٢فائدة: في قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ)) دلالة على تزويج البنت التي توفيت بكرًا في الجنَّة.
٣صحيح مسلم (٢٨٣٤).

وفي المسند مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنْ حُورِ الْعِينِ، عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ الثِّيَابِ))[١].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ))[٢].

والأحاديث الصحيحة إنما فيها أنَّ لكل منهم زوجتين، وليس في الصحيح زيادة على ذلك، فإنْ كانت هذه الأحاديثُ محفوظةً فإمَّا أنْ يراد بها ما لكل واحد مِن السراري زيادة على الزوجتين[٣]، ويكونون في ذلك على حسب منازلهم في القلة والكثرة كالخدم والولدان، وإمَّا أنْ يراد أنه يُعطى قوة مَن يجامع هذا العدد، ويكون هذا هو المحفوظ؛ فرواه بعض هؤلاء بالمعنى فقال: له كذا وكذا زوجة.

ولا ريب أنَّ للمؤمن في الجنَّة أكثر مِن اثنتين، لِمَا في الصحيحين مِن حديث

١صحيح. أحمد (٨٥٤٢)، وصححه الشيخ شعيب رحمه الله في تحقيق المسند.
٢صحيح. صفة الجنَّة لأبي نعيم (٣٧٣). الصحيحة (٣٦٧).
٣يشير رحمه الله إلى انَّ هناك جملة مِن الاحاديث -وقد أوردها في السياق- وفيها أنَّ الزوجات أكثرُ مِن اثنتين، إلَّا أنَّ عامتها ضعيفٌ لا يصح.

أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ؛ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا))١.

١صحيح مسلم (٢٨٣٨).

▪ الباب الرابع والخمسون: في ذكر المادة التي خُلق منها الحورُ العين، وما ذكر فيها مِن الآثار، وذكر صفاتهم ومعرفتهن اليوم بأزواجهن

[في المرفوع أحاديث عدة ضعيفة أنَّ الحور العين خُلقت مِن زعفران]، وهذا مروي عن صاحبين وهما ابن عباس وأنس، وعن تابعيين وهما أبو سلمى ومجاهد، وبكل حال فهي مِن المنشآت في الجنَّة؛ ليست مولودات بين الآباء والأمهات. والله أعلم.

وفي مسند الإمام أحمد عن معاذ رضي الله عنه مرفوعًا ((لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ -قَاتَلَكِ اللهُ-! فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا))[1].

---

[1] صحيح. أحمد (٢٢١٠١). صحيح الجامع (٧١٩٢).

▪ الباب الخامس والخمسون: في ذِكر نكاح أهل الجنَّة ووطئهم والتذاذهم بذلك أكمل لذة، ونزاهة ذلك عن المذي والمني والضعف؛ وأنه لا يوجب غسلًا

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَصِلُ إِلَى نِسَائِنَا فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عَذْرَاءَ))١.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا ((فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِم الْمُؤْمِنُ))٢.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم (قِيلَ لَهُ: أَنَطَأُ فِي الْجَنَّةِ؟ قَالَ: (نَعَمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- دَحْمًا دَحْمًا٣، فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكْرًا))٤.

وعن عكرمة -في قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ}

١صحيح. صفة الجنَّة لأبي نعيم (٣٧٣). الصحيحة (٣٦٧).
٢صحيح مسلم (٢٨٣٨).
٣"الدَّحمُ: الدفعُ الشديدُ". لسان العرب (١٢/ ١٩٦).
٤صحيح. ابن حبان (٥١٨٧). الصحيحة (٣٣٥١).

[يس: ٥٥]–، قال: "فِي افْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ"١.

وعن سعيد بن جبير "أنَّ شهوته لتجري في جسده سبعين عامًا يَجِدُ اللذةَ"٢، ولا يلحقهم بذلك جنابة فيحتاجون إلى التطهير، ولا ضعف ولا انحلال قوة، بل وطئهم وطء التذاذ ونعيم، لا آفة فيه بوجه مِن الوجوه.

وأكملُ الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام، فكما أنَّ مَن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومَن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومَن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة كما قال النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة))؛ فمَنِ استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حُرِمَها هناك –كما نعى سبحانه وتعالى على مَن أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها–، ولهذا كان الصحابة ومَن تبعهم يخافون مِن ذلك أشد الخوف، وفي الأثر "مَرَّ جَابِرٌ عَلَى عُمَرَ بِلَحْمٍ قَدِ اشْتَرَاهُ بِدِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا هَذَا؟ قَالَ:

١البعث والنشور للبيهقي (٣٦٢).
٢مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦٨٨).

اشْتَرَيْتُهُ بِدِرْهَمٍ، قَالَ: كُلَّمَا اشْتَهَيْتَ شَيْئًا اشْتَرَيْتَهُ؟! لَا تَكُنْ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} [الأحقاف: ٢٠]"١.

١مصنف ابن أبي شيبة (٢٤٥٢٤).

▪ الباب السادس والخمسون: في ذكر اختلاف الناس: هل في الجنَّة حمْلٌ وولادة أم لا؟

قال الترمذي في جامعه: "حَدَّثَنَا بُنْدَارٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ عَامِرٍ الأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي الصِّدِّيقِ النَّاجِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((المُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الوَلَدَ فِي الجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي))١. هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ العِلْمِ فِي هَذَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي الجَنَّةِ جِمَاعٌ وَلَا يَكُونُ وَلَدٌ، هَكَذَا رُوِيَ عَنْ طَاوُسٍ، وَمُجَاهِدٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ.

وقَالَ مُحَمَّدٌ، قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِذَا اشْتَهَى المُؤْمِنُ الوَلَدَ فِي الجَنَّةِ كَانَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَشْتَهِي) وَلَكِنْ لَا يَشْتَهِي٢). قَالَ مُحَمَّدٌ: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي رَزِينٍ العُقَيْلِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهَا وَلَدٌ))٣. وَأَبُو الصِّدِّيقِ

١صحيح. الترمذي (٢٥٦٣). صحيح الجامع (٦٦٤٩).
٢"(وَلَكِنْ لَا يَشْتَهِي) هذا هو مقول إسحاق بن إبراهيم". تحفة الأحوذي (٧/ ٢٤١).
٣ضعيف. السنة لابن أبي عاصم (٦٣٦)، وضعفه الألباني رحمه الله، وكذا الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (٥/ ٥٧)، فقال: "هو حديث غريب جدًا"، وكذا الحافظ ابن كثير

النَّاجِيِّ اسْمُهُ: بَكْرُ بْنُ عَمْرٍو وَيُقَالُ: بَكْرُ بْنُ قَيْسٍ أَيْضًا"١ .

وقال نفاة الإيلاد: فهذا حديث صريح في انتفاء الولادة٢، وقوله: ((إِذَا اشْتَهَى)) معلق بالشرط، ولا يلزم مِن التعليق وقوعُ المعلَّق ولا المعلَّق به٣.

وهذه الألفاظ لا تنافي بينها ولا تناقض، وحديث أبي رزين ((غَيرَ أَنْ لَا تَوَالُدَ)) إذ ذاك نفي للتوالد المعهود في الدنيا، ولا ينفي ولادة حمْل الولد فيها ووضعه وسنه وشبابه في ساعة واحدة.

رحمه الله في البداية والنهاية (٧/ ٣٣٩)، فقال: "هذا حديث غريب جدًا، وألفاظه في بعضها نكارة".

وللعلم: فقد قال فيه ابن القيم رحمه الله: "وأمَّا حديث أبي رزين -الذي أشار إليه البخاري- فهو حديثه الطويل، ونحن نسوقه بطوله نُجَمِّلُ به كتابنا؛ فعليه مِن الجلالة والمهابة ونور النبوة ما ينادي على صحته"، وقال أيضًا: " وسألتُ شيخنا أبا الحجاج المزي عنه، فقال: عليه جلالة النبوة".

١سنن الترمذي (٤/ ٦٩٦).

٢يعني: حديث أبي رزين.

٣وقد تقدم في الحاشية ذكر ضعف الحديث.

▪ الباب السابع الخمسون: في ذكر سماع الجنَّة وغناء الحور العين، وما فيه مِن الطرب واللذة

قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} [الروم: ١٤، ١٥].

قال يحيى بن أبي كثير: الحبرة: اللذة والسماع. ولا يخالف هذا قولَ ابن عباس: يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: يُنعمون؛ فلذة الأذن بالسماع مِن الحبرة والنعيم [والإكرام].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ الْحُورَ فِي الْجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ يَقُلْنَ: نَحْنُ الْحُورُ الْحِسَانُ، هُدِينَا لِأَزْوَاجٍ كِرَامٍ))[١].

وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا ((إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانْ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامْ، يَنْظُرْنَ بِقُرَّةِ أَعْيَانْ. وَإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا يَمُتْنَهْ، نَحْنُ الْآمِنَاتُ فَلَا يَخَفْنَهْ، نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا

١صحيح. الطبراني في الأوسط (٦٤٩٧). صحيح الجامع (١٦٠٢).

يَظْعَنَّهْ))١.

ولهم سماع أعلى مِن هذا يضمحل دونه كل سماع، وذلك حين يسمعون كلام الرب جلَّ جلالُه وخطابه وسلامه عليهم ومحاضرته لهم، ويقرأ عليهم كلامه، فإذا سمعوه منه فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك، وسيمر بك أيها السُّنِّيُّ مِن الأحاديث الصحاح والحسان في ذلك ما هو مِن أحب سماع لك في الدنيا وألذ لأذنك وأقر لعينك؛ إذ ليس في الجنَّة لذة أعظم مِن النظر إلى وجه الرب تعالى وسماع كلامه منه، ولا يعطى أهل الجنَّة شيئًا أحبَّ إليهم مِن ذلك.

١صحيح. الطبراني في الأوسط (٤٩١٧). صحيح الجامع (١٥٦١).

▪ الباب الثامن والخمسون: في ذكر مطايا أهل الجنَّة وخيولهم ومراكبهم

روى الترمذي من حديث أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعًا (أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ الخَيْلَ، أَفِي الجَنَّةِ خَيْلٌ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنْ أُدْخِلْتَ الجَنَّةَ؛ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ لَهُ جَنَاحَانِ فَحُمِلْتَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَارَ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ))١.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية٢]

١حسن. الترمذي (٢٥٤٤). الصحيحة (٣٠٠١)، وقد كان الشيخ الألباني رحمه الله قد ضعَّفَه قديمًا ثم حسَّنه بشواهده.

٢عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه (سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أُحِبُّ الْخَيْلَ؛ أَفِي الْجَنَّةِ خَيْلٌ؟ فَقَالَ: (إِنْ يُدْخِلْكَ اللهُ الْجَنَّةَ؛ أُتِيتَ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ لَهُ جَنَاحَانِ، فَحُمِلْتَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَارَ بِكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ)، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ فِي الْجَنَّةِ إِبِلٌ؟ فَلَمْ يَقُلْ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ الَّذِي قَالَ لِصَاحِبِهِ، قَالَ: (إِنْ يُدْخِلْكَ اللهُ الْجَنَّةَ، يَكُونُ لَكَ فِيهَا مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَقَرَّتْ عَيْنُكَ)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٨١).

▪ الباب التاسع والخمسون: في زيارة أهل الجنَّة بعضهم بعضًا وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا

قال تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [الصافات: ٥٠-٥٧].

ولهم زيارة أخرى أعلى مِن هذه وأجلُّ؛ وذلك حين يزورون ربَّهم تبارك وتعالى فيريهم وجهَه ويُسمعهم كلامَه ويُحِلُّ عليهم رضوانَه، وسيمر بك ذكر هذه الزيارة عن قرب إنْ شاء الله تعالى.

▪ الباب الستون: في ذكر سوق الجنَّة، وما أعد الله تعالى فيه لأهلها

روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ -وَاللهِ- لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا))١.

وعند أحمد ((إِنَّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ سُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فِيهَا كُثْبَانُ الْمِسْكِ، فَإِذَا خَرَجُوا إِلَيْهَا هَبَّتِ الرِّيحُ - قَالَ حَمَّادٌ: أَحْسِبُهُ قَالَ: شَمَالِيٌّ-، قَالَ: فَتَمْلَأُ وُجُوهَهُمْ وَثِيَابَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ مِسْكًا، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا))٢.

١صحيح مسلم (٢٨٣٣).
٢صحيح. أحمد (١٤٠٣٥). صحيح الجامع (٢١٢٤).

▪ الباب الحادي والستون: في ذكر زيارة أهل الجنَّة ربهم تبارك وتعالى

قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [مريم: ٨٥].

قال الضحاك: على النجائب عليها الرحال.

▪ الباب الثاني والستون: في ذكر السحاب والمطر الذي يصيبهم في الجنَّة

قد جعل الله سبحانه وتعالى السحاب وما يمطره سببًا للرحمة والحياة في هذه الدار، ويجعله سببًا لحياة الخلق في قبورهم حيث يمطر على الأرض أربعين صباحًا مطرًا متداركًا مِن تحت العرش فينبتون تحت الأرض كنبات الزرع ويبعثون يوم القيامة والسماء تطش عليهم، وكأنه -والله أعلم- أثر ذلك المطر العظيم كما يكون في الدنيا، ويثير لهم سحابًا في الجنَّة يمطرهم ما شاءوا مِن طيب وغيره، وكذلك أهل النار ينشئ لهم سحابًا يمطر عليهم عذابًا إلى عذابهم كما أنشأ لقوم هود وقوم شعيب سحابًا أمطر عليهم عذابًا أهلكهم، فهو سبحانه ينشئه للرحمة والعذاب.

▪ الباب الثالث والستون: في ذكر ملْك الجنَّة، وأن أهلها كلهم ملوك فيها

قال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} [الإنسان: ٢٠].

وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة مرفوعًا ((سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ؛ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا؛ فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] الْآيَةَ))١.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه موقوفًا (خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْجَنَّةَ لَبِنَةً مِنْ

١صحيح مسلم (١٨٩).

ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَهَا، وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: ١]، فَدَخَلَتْهَا الْمَلائِكَةُ فَقَالَتْ: طُوبَاكِ؛ مَنْزِلَ الْمُلُوكِ)١.

١صحيح موقوف -وهو في حكم المرفوع-، رواه البزار (٣٥٠٧). الصحيحة (٢٦٦٢).

▪ الباب الرابع والستون: في أنَّ الجنَّة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، وأن موضع سوط منها خير مِن الدنيا وما فيها

قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٦، ١٧].

وتأملْ كيف قابل ما أخفوه مِن قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقَهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حتى يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنَّة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}))١.

وفي لفظ آخر ((قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ

١صحيح البخاري (٣٢٤٤).

عَلَيْهِ[1]))[2].

وعند أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((قِيدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا)، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: مَا النَّصِيفُ؟ قَالَ: الْخِمَارُ))[3].

وكيفَ يُقدَّر قدْر دارٍ غرسها الله بيده، وجعلها مقرًّا لأحبابه، وملأها مِن كرامته ورحمته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، ومُلْكَها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها مِن كل عيب وآفة ونقص؟!

فإنْ سألتَ عن أرضها وتربتها؛ فهي المسك والزعفران.

وإنْ سألتَ عن سقفها؛ فهو عرش الرحمن.

وإنْ سألتَ عن مِلاطها؛ فهو المسك الأذفر.

وإنْ سألتَ عن حصبائها؛ فهي اللؤلؤ والجوهر.

وإنْ سألتَ عن بنائها؛ فلَبِنَة مِن فضة ولبنة مِن ذهب.

---

[1] "معناها: دَعْ عنك ما أطلعكم عليه؛ فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. وكأنه أضرب عنه استقلالًا له في جنب ما لم يُطلع عليه". شرح النووي على مسلم (١٧/ ١٦٦).

[2] صحيح مسلم (٢٨٢٤).

[3] صحيح. أحمد (١٠٢٧٠)، تحت حديث الصحيحة (١٩٧٨).

وإنْ سألتَ عن أشجارها؛ فما فيها شجرة إلَّا ساقها مِن ذهب أو فضة، لا مِن الحطب والخشب!

وإنْ سألتَ عن ثمرها؛ فأمثال القِلال، ألْين مِن الزبد، وأحلى مِن العسل.

وإنْ سألتَ عن ورقها؛ فأحسن ما يكون مِن رقائق الحلل.

وإنْ سألتَ عن أنهارها؛ فأنهار مِن لبن لم يتغير طعمه، وأنهار مِن خمر لذة للشاربين، وأنهار مِن عسل مصفى .

وإنْ سألتَ عن طعامهم؛ ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون.

وإنْ سألتَ عن شرابهم؛ فالتسنيم والزنجبيل والكافور.

وإنْ سألتَ عن آنيتهم؛ فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإنْ سألتَ عن سعة أبوابها؛ فبين المصراعين مسيرة أربعين مِن الأعوام، وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كظيظ مِن الزحام

وإنْ سألتَ عن تصفيق الرياح لأشجارها؛ فإنَّها تستفز بالطرب لِمَن يسمعها.

وإنْ سألتَ عن ظِلِّها؛ ففيها شجرة واحدة يسير الرَّاكبُ المجدُّ السريع في ظلها مئة عام لا يقطعها.

وإنْ سألتَ عن سعتها؛ فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه

مسيرة ألفي عام.

وإنْ سألتَ عن خيامها وقبابها؛ فالخيمة الواحدة من دُرَّةٍ مجوَّفة طولها ستون ميلًا مِن جملة الخيام

وإنْ سألتَ عن علاليها وجواسقها[1]؛ فهي غرف من فوقها غرف مَبْنِية، تجري من تحتها الأنهار.

وإنْ سألتَ عن ارتفاعها؛ فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الَّذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإنْ سألتَ عن لباس أهلها؛ فهو الحرير والذهب.

وإنْ سألتَ عن فرشهم؛ فبطائنها مِن إستبرق مفروشة في أعلى الرُّتَب.

وإنْ سألتَ عن أرائكها؛ فهي الأسرة عليها البشخانات، وهي: الحِجَال مُزَرَّرَة بإزرار الذهب، فما لها مِن فُروج ولا خلال.

وإنْ سألتَ عن وجوه أهلها وحسنهم؛ فعلى صورة القمر.

وإنْ سألتَ عن أسنانهم؛ فأبناءُ ثلاثة وثلاثين على صورة آدم أبي البشر.

وإنْ سألتَ عن سماعهم؛ فغناء أزواجهم مِن الحور العين، وأعلى منه سماع

---

[1] "الجَوسَقِ: الْقصر الصَّغِير". المعجم الوسيط (١/ ١٤٧).

أصوات الملائكة والنَّبيين، وأعلى منهما سماع خطاب ربِّ العالمين.

وإنْ سألتَ عن مطاياهم التي يتزاورون عليها؛ فنجائب -أنشأها اللَّه تعالى ممَّا شاءَ- تسير بهم حيث شاءوا مِن الجنان.

وإنْ سألتَ عن حُليهم وشارتهم؛ فأسَاوِر الذهب واللؤلؤ، على الرؤوس ملابس التِّيجان.

وإنْ سألتَ عن غلمانهم؛ فولدانٌ مخلدون كأنَّهم لؤلؤٌ مكنون.

وإنْ سألتَ عن عرائسهم وأزواجهم؛ فهُنَّ الكواعب الأترابُ، الَّلاتي جرى في أغصانِهنَّ ماءُ الشباب؛ فللوردِ والتفاح: ما لبسته الخدود، وللرُّمان: ما تضمنته النهود، ولِلُّؤلؤ المنظوم: ما حوته الثغور، وللدقة والَّلطافة: ما دارتْ عليه الخصور، تجري الشمسُ في محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق مِن بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حِبَّها؛ فَقُلْ ما شئتَ في تقابل النَّيِّرَين، وإذا حادثته فما ظنُّك بمحادثة الحبيبين، وإنْ ضمها إليه؛ فما ظنك بتعانق الغصنين، يرى وجهَه في صحن خدِّها كما يرى في المرآة التي جلَّاها صيقلها، ويرى مخَّ ساقها مِن وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حُلَلُها، لو اطلعتْ على الدنيا لملأت ما بين السماء والأرض ريحًا،

ولاستنطقتْ أفواهَ الخلائقِ تهليلًا وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضتْ عن غيرها كلَّ عينٍ، ولطمستْ ضوءَ الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمَن مَن على ظهرها باللَّه الحيِّ القيوم، نصيفها على رأسها خيرٌ مِن الدنيا وما فيها، ووصالها أشهى إليه مِن جميع أمانيها، لا تزداد على تطاول الأحقاب إلَّا حسنًا وجمالًا، ولا يزدادُ لها على طول المدى إلَّا محبة وَوِصالًا، مُبَرَّأة مِن الحبلِ والولادة والحيض والنفاس، مطهَّرة مِن المخاطِ والبصاق والبولِ والغائط وسائرِ الأَدناس، لا يفنى شبابُهَا، ولا تبلى ثيابها، ولا يخلقُ ثوب جمالها، ولا يملُّ طيبُ وصالها، قد قصرتْ طرفها على زوجها؛ فلا تطمحُ لأحدٍ سواهُ، وقَصَرَ طرفَه عليها؛ فهي غايه أُمنيته وهواه، إنْ نظرَ إليها سرَّته، وإنْ أمرها أطاعته، وإنْ غابَ عنها حفظته؛ فهو معها في غاية الأماني والأمان، هذا؛ ولم يطمثها قبله إنسٌ ولا جانٌّ، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا، وكلَّما حدثته ملأت أُذُنه لؤلؤًا منظومًا ومنثورًا، وإذا برزت ملأت القصرَ والغرفة نورًا.

وإنْ سألتَ عن السِنِّ؛ فأترابٌ في أعدلِ سنِّ الشباب.

وإنْ سألتَ عن الحُسن؛ فهل رأيت الشمس والقمر؟!

وإنْ سألتَ عن الحدَق؛ فأحسن سواد في أصفى بياض في أحسن حَوَر.

وإنْ سألتَ عن القدود؛ فهل رأيتَ أحسن الأغصان؟

وإنْ سألتَ عن النهود؛ فهنَّ الكواعب، نهودهن كألطف الرمان.

وإنْ سألتَ عن اللون؛ فكأنَّهن الياقوت والمرجان.

وإنْ سألتَ عن حسن الخلق؛ فهنَّ الخَيْرات الحسان، الَّلاتي جُمِعَ لهنَّ بين الحسن والإحسان؛ فأعطين جمالَ الباطن والظاهر، فهنَّ أفراح النفوس، وقُرَّة النواظر.

وإنْ سألتَ عن حُسْن العِشْرة، ولذة ما هنالك؛ فهنَّ العُرُب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التي تمتزج بالروح أيَّ امتزاج، فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنَّة مِن ضحكها، وإذا انتقلت مِن قصر إلى قصر؛ قلتَ: هذه الشمس مُنْتقلة في بروج فَلَكِهَا، وإذا حاضرتْ زوجَها؛ فيا حسن تلك المحاضرة، وإنْ خاصرته فيا لذَّة تلك المعانقة والمخاصرة؟!

وحديثُها السحر الحلالُ لو أنَّه ... لم يَجْنِ قتلَ المسلم المتحرِّز

إنْ طال لم يُمْلَلْ، وإنْ هي حدَّثت ... ودَّ المحدَّثُ أنَّها لم توجِزِ

إنْ غنَّت؛ فيا لذَّة الأبصارِ والأسماع.

وإنْ آنست وأمتعت؛ فيا حبَّذا تلك المؤانسة والإمتاع.

وإنْ قَبَّلت؛ فلا شيء أشهى إليه مِن ذلك التقبيل.

وإنْ نوَّلتْ؛ فلا ألذَّ ولا أطيبَ من ذلك التَّنويل.

هذا؛ وإنْ سألتَ عن يوم المزيد، وزيارة العزيز الحميد، ورؤية وجهه المنزَّه عن التمثيل والتشبيه كما تُرَى الشمس في الظهيرة والقمر ليلة البدرِ -كما تواتر عن الصادق المصدوق النقلُ فيه، وذلك موجود في الصِّحاح والسنن والمسانيد مِن رواية: جرير، وصهيب، وأنس، وأبي هريرة، وأبي موسى، وأبي سعيد-؛ فاستمع يوم ينادي المنادي: يا أهل الجنَّة، إنَّ ربَّكم تبارك وتعالى يستزيركم فحيَّ على زيارته، فيقولون: سمعًا وطاعة، وينهضون إلى الزيارة مبادرين، فإذا بالنَّجائب قد أُعدتْ لهم، فيستوون على ظهورها مسرعين، حتَّى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الَّذي جُعل لهم موعدًا، وجُمِعُوا هناك فلم يغادر الدَّاعي منهم أحدًا؛ أمرَ تبارك وتعالى بكرسيِّه فنصبَ هناك، ثمَّ نصبت لهم منابر مِن نور، ومنابر مِن لؤلؤ، ومنابر مِن زبرجد، ومنابرُ مِن ذهب، ومنابر مِن فضة، وجلس أدناهم -وحاشاهم مِن الدنايا- على كثبان المسك، ما يرون أنَّ أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتَّى إذا استقرت

بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم نادى المنادي: يا أهل الجنَّة إنَّ لكم عندَ اللَّهِ موعدًا يريدُ أنْ ينجزَكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يُبيض وجوهنا ويثقِّل موازيننا، ويدخلنا الجنَّة، ويزحزحنا عن النَّارِ؟! فبينا هم كذلك؛ إذ سطع لهم نورٌ أشرقتْ له الجنَّة، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الجبَّار جلَّ جلاله وتقدَّستْ أسماؤه قد أشرف عليهم مِن فوقهم، وقال: (يا أهل الجنَّة: سلامٌ عليكم). فلا تردُّ هذه التحية بأحسنَ مِن قولهم: اللهم أنت السلام، ومنكَ السلام، تباركتَ ياذا الجلال والإكرام. فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى يضحك إليهم، ويقول: (يا أهل الجنَّة)! فيكون أولَ ما يسمعون منه تعالى: (أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني؟ فهذا يوم المزيد)، فيجتمعون على كلمة واحدة: أنْ قد رضينا؛ فارض عنا، فيقول: (يا أهل الجنَّة، إني لو لم أرض عنكم لم أُسْكِنْكم جنتي، هذا يوم المزيد؛ فسلوني)، فيجتمعون على كلمةٍ واحدة: أَرِنا وجهك ننظرْ إليه، فيكشف الرب جلَّ جلالُه الحُجُبَ، ويتجلى لهم، فيغشاهم مِن نوره ما لولا أنَّ اللَّه سبحانه قضى أنْ لا يحترقوا لاحترقوا، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلَّا حاضره الربُّ تعالى محاضرة، حتى إنه ليقول: (يا فلان؛ أتذكر يوم فعلتَ كذا وكذا) يذكره

ببعض غدراته في الدنيا، فيقول: يا رب ألم تغفر لي؟ فيقول: (بلى، بمغفرتي بلغتَ منزلتك هذه)، فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قُرَّة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذِلَّة الراجعين بالصفقة الخاسرة، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} [القيامة: ٢٢ - ٢٥].

فحيَّ على جنَّاتِ عدْنٍ؛ فإنَّها ... منازلُكَ الأُولى وفيها المُخَيَّمُ

ولكنَّنا سبْي العدوِّ فهل ترى ... نعُودُ إِلى أوطاننا ونُسَلَّمُ

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية١]

١وعن ابن عباس رضي الله عنهما (نَخْلُ الْجَنَّةِ جُذُوعُهَا مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ، وَكَرَبُهَا [أصول السعف الغلاظ العراض] ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وَسَعَفُهَا [ورق النخل وجريده] كِسْوَةٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مُقَطَّعَاتُهُمْ وَحُلَلُهُمْ، وَثَمَرُهَا أَمْثَالُ الْقِلَالِ وَالدِّلَاءِ، أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، لَيْسَ فِيهَا عَجَمٌ[ليس فيها نوى]). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٥٢).

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((أَتَانِي جِبْرِيلُ -عَلَيهِ السَّلَامُ- وَفِي كَفِّهِ مِرْآةٌ بَيْضَاءُ، فِيهَا نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ، يَعْرِضُهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ -عَزَّ وَجَلَّ- لِتَكُونَ لَكَ عِيدًا، وَلِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِكَ، تَكُونُ أَنْتَ الْأَوَّلَ، وَيَكُونُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ بَعْدِكَ، قُلْتُ: مَا لَنَا فِيهَا؟ قَالَ: لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، لَكُمْ فِيهَا سَاعَةٌ مَنْ دَعَا رَبَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِيهَا بِخَيْرٍ هُوَ لَهُ قَسْمٌ؛ أَعْطَاهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَوْ لَيْسَ لَهُ بِقَسْمٍ إِلَّا ذُخِرَ لَهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، أَوْ تَعَوَّذَ فِيهَا مِنْ شَرِّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَنَحْنُ نَدْعُوهُ فِي الْآخِرَةِ: يَوْمَ الْمَزِيدِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَادِيًا أَفْيَحَ مِنْ مِسْكٍ أَبْيَضَ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ؛ نَزَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ عِلِّيِّينَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، ثُمَّ حَفَّ الْكُرْسِيَّ بِمَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّونَ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ حَفَّ الْمَنَابِرَ بِكَرَاسِيَّ مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ جَاءَ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا عَلَى الْكَثِيبِ وَهُوَ كَثِيبٌ أَبْيَضُ مِنْ مِسْكٍ أَذْفَرَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ -عَزَّ وَجَلَّ- حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَى

الباب الخامس والستون: في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة كما يُرى القمرُ ليلةَ البدر، وتجليه لهم ضاحكًا إليهم[1]

هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها عينًا لأهل السُّنَّة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنَّة نسوا ما هم فيه مِن النعيم وحرمانه، والحجابُ عنه لأهل الجحيم أشد عليهم مِن عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون والجهمية المتهوكون والفرعونية المعطلون والباطنية –الذين هم مِن جميع الأديان منسلخون– والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون ومِن حبل الله منقطعون وعلى مسبة

وَجْهِهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَهو يَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي، فَاسْأَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا، فَيَقُولُ: رِضَايَ أَحَلَّكُمْ دَارِي وَأَنَالَكُمْ كَرَامَتِي؛ فَسَلُونِي، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى تَنْتَهِيَ رَغْبَتُهُمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، إِلَى مِقْدَارِ مُنْصَرَفِهِمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ يَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ، وَهِيَ زَبَرْجَدَةٌ خَضْرَاءُ أَوْ يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ، مُطَّرِدَةٌ، فِيهَا أَنْهَارُهَا، مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا، فَلَيْسُوا هُمْ فِي الْجَنَّةِ بِأَشْوَقَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ لِيَزْدَادُوا مِنْهُ كَرَامَةً، وَلِيَزْدَادُوا نَظَرًا إِلَى وَجْهِهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ الْمَزِيدِ). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٩٨).

[1] في هذا الباب اختصار واقتصار على خلاصة الدلالات وأوجه الرد درءًا للإطالة.

أصحاب رسول الله عاكفون وللسنة وأهلها محاربون ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون، وكلٌّ هؤلاء عن ربهم محجوبون وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه.

- وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن أعلم الخلق به في زمانه -وهو كليمه ونجيه وصفيه مِن أهل الأرض- أنه سأل ربَّه تعالى النظرَ إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى: {لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} [الأعراف: ١٤٣].

وبيان الدلالة من هذه الآية مِن وجوه عديدة:

١- أنه لا يُظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أنْ يسأل ربه ما لا يجوز عليه.

٢- أنَّ الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه.

٣- أنه أجابه بقوله: {لَنْ تَرَانِي} ولم يقل: لا تراني! ولا: إني لست بمرئي ولا تجوز رؤيتي! والفرق بين الجوابين ظاهر لَمَن تأمله، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يُرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيتَه في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه ما بعده

٤- قوله: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} فأعْلَمَه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار؛ فكيف بالبشر الضعيف الذي خُلق مِن ضعف.

٥- قوله سبحانه وتعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} وهذا مِن أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أنْ يتجلى للجبل -الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب عليه-؛ فكيف يمتنع أنْ يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم ويريهم نفسه.

٦- أنَّ ربَّه سبحانه وتعالى قد كلَّمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومَن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يَسمع مخاطَبُه كلامَه معه بغير واسطة؛ فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلَّا بإنكار التكلي.

وأمَّا قوله تعالى: {لَنْ تَرَانِي} فإنما يدل على النفي في المستقبل ولا يدل على دوام النفي -ولو قيدت بالتأبيد-؛ فكيف إذا أطلقت؟! قال تعالى: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا} [البقرة: ٩٥] مع قوله تعالى: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [الزخرف: ٧٧].

- الدليل الثاني: قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ} [البقرة:

٢٢٣]، وقوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [الأحزاب: ٤٤]، وقوله تعالى: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ} [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ} [الكهف: ١١٠].

وأجمع أهل اللسان على أنَّ اللقاء متى نُسب إلى الحي -السليم مِن العمى والمانع- اقتضى المعاينة والرؤية، ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ} [التوبة: ٧٧]؛ فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أنَّ المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة -بل والكفار أيضًا- كما في الصحيحين مِن حديث التجلي يوم القيامة.

- الدليل الثالث: قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٥-٢٦]

فالحسنى الجنَّة، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسرها رسول الله -الذي أُنزل عليه القرآن-؛ فالصحابة مِن بعده.

كما روى مسلم في صحيحيه -واللفظ لابن ماجه- عن صهيب رضي الله عنه: (تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]، وَقَالَ: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ؛ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ. فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ -يَعْنِي إِلَيْهِ- وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ))١.

والأحاديث عن الصحابة رضي الله عنهم بذلك صحيحة، ولما عطف سبحانه الزيادةَ على الحسنى -التي هي الجنَّة- دلَّ على أنها أمر آخر مِن وراء الجنَّة، وقدْرٌ زائد عليها، ومَن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان؛ فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى.

- الدليل الرابع: قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥].

ووجه الاستدلال بها أنه سبحانه وتعالى جعل مِن أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه؛ فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه

١صحيح مسلم (١٨١)، ابن ماجه (١٨٧).

كانوا أيضًا محجوبين عنه! وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره مِن الأئمة، فذكر الطبري وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي -يقول في قوله عزَّ وجلَّ: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}-: "فيها دليل على أنَّ أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة"١.

- الدليل الخامس: قوله عزَّ وجلَّ: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥].

قال الطبراني: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، وقاله مِن التابعين: زيد بن وهب وغيره.

- الدليل السادس: قوله عزَّ وجلَّ: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} [الأنعام: ١٠٣].

والاستدلال بهذا أعجب* فإنَّه مِن أدلة النفاة! وقد قرَّر شيخُنا وجهَ الاستدلال به أحسنَ تقرير وألطفه، وقال لي: "أنا ألتزمُ أنَّهُ لا يحتج مبطلٌ بآية أو حديثٍ صحيح على باطله؛ إلَّا وفي ذلك الدليلِ ما يدلُّ على نقض قوله"، فمنها هذه الآية ،وهي على جواز الرؤية أدلُّ منها على امتناعها؛ فإنَّ اللَّهَ

١شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لللالكائي (٨١٠).

سبحانه إنَّما ذكرها في سياق التمدُّح، ومعلومٌ أنَّ المدحَ إنَّما يكونُ بالأوصاف الثبوتية، وأمَّا العدمُ المحض فليس بكمال؛ فلا يُمدح به، وإنَّما يُمْدح الربُّ تعالى بالعَدَمِ إذا تضمن أمرًا وجوديًّا:

كمدحه بنفي السِّنَة والنوم المتضمن كمال القَيُّومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللُّغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولدِ والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكلِ والشربِ المتضمن لكمال صَمَدِيَّتِهِ وغِنَاهُ، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناهُ عن خلْقِه، ونفي الظلمِ المتضمن كمال عدلِهِ وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيءٍ عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته. ولهذا لم يتمدَّح بعَدَمٍ محْضٍ لا يتضمن أمرًا ثبوتيًّا؛ فإنَّ المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدمٍ، ولا يوصف الكامل بأمرٍ يشترك هو والمعدوم فيه! فلو كان المراد بقوله: {لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣] أَنَّهُ لا يُرَى بحالٍ لم يكن في ذلك مَدْحٌ ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك؛ فإنَّ العَدَمَ الصِّرْف لا يُرَى ولا تدركه الأبصارُ، والرَّبُّ جلَّ جلاله يتعالى أنْ يُمْدَحَ بما يشاركه فيه

العدمُ المحض!

فإذًا المعنى أنَّه يُرى ولا يُدرك ولا يُحاطُ به، كما كان المعنى في قوله: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ} [يونس: ٦١] أنَّه يعلمُ كلَّ شيء، وفي قوله: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨] أنَّه كامل القدرة، وفي قوله: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] أنَّه كامل العدل، وفي قوله: {لَا تَأْخُذُه سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥] أنَّهُ كامل القيومِيَّة.

فقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} يدلُّ على غايةِ عظمته، وأنَّه أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وأنَّه لعظمته لا يُدْرَك بحيث يُحَاطُ به، فإنَّ الإدراك هو: الإحاطة بالشيء، وهو قدرٌ زائدٌ على الرؤية، كما قال تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا} [الشعراء: ٦١، ٦٢] فلم ينفِ موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} إنَّا لمرْئِيُّون! فإنَّ موسى - صلوات اللَّه وسلامه عليه- نفى إدراكهم إيَّاهم بقوله: {كَلَّا}، وأخبر اللهُ سبحانه أنَّه لا يخاف دركهم بقوله: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [طه: ٧٧]، فالرؤية والإدراك كلٌّ منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالربُّ تعالى يُرى ولا

يُدْرَكُ، كما يعلمُ ولا يحاط به، وهذا هو الَّذي فهمته الصحابة والأئمة مِن الآية.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "{لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣] لا تُحِيطُ به الأبصار"، وقال قتادة: "هو أعظمُ مِن أنْ تدركَه الأبصار"، وقال عطية: "ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به مِن عظمته، وبصرُه يحيط بهم، فذلك قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}".

فالمؤمنون يرون ربهم -تبارك وتعالى- بأبصارهم عيانًا، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أنْ يوصف اللَّه عزَّ وجلَّ بأنْ شيئًا يحيط به وهو بكل شيء محيط، وهكذا يُسْمِعُ كلامَه مَن شاء مِن خلقه، ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يُعلِّم الخلقُ ما علَّمَهم ولا يحيطون بعلمه.

ونظير هذا استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، وهذا مِن أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله؛ وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مِثْلٌ فيها، وإلَّا فلو أريد بها نفيُ الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه، مع أنَّ جميع العقلاء

إنما يفهمون مِن قول القائل: فلان لا مِثْلَ له وليس له نظير، ولا شبيه ولا مثل: أنَّه قد تَمَيَّز عن الناس بأوصافٍ ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فات أمثاله، وبَعُدَ عن مشابهة أضرابه، فقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} مِن أدلِّ شيءٍ على كثرة نعوته وصفاته، وقوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} [الأنعام: ١٠٣] مِن أدلِّ شيءٍ على أَنَّهُ يُرى ولا يُدرك، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤] مِن أدلِّ شيءٍ على مباينة الرَّبِّ لخلقه؛ فإنه لم يخلقهم في ذاته بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، ويراهم وينفذهم بصره، ويحيط بهم عِلْمًا وقدرة وإرادة وسمعًا وبصرًا، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا.

وتأمَّل حُسن هذه المقابلة لفظًا ومعنًى بين قوله: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ} [الأنعام: ١٠٣]؛ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أنْ تدركه الأبصار وتحيط به، ولِلُطْفِه وخبرته يُدْرِك الأبصار فلا تخفى عليه، فهو

العظيم في لُطْفِه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوِّه، الَّذي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)} [الأنعام: ١٠٣].

- الدليل السابع: قوله عزَّ وجلَّ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وأنت إذا أَجَرْتَ هذه الآية مِن تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراد منها وجدتها منادية نداء صريحًا: أنَّ اللَّه سبحانه يُرى عيانًا بالأبصار يوم القيامة، وإنْ أبيتَ إلَّا تحريفها -الذي يسميه المُحرِّفُون تأويلًا-، وإضافة النظر إلى الوجه -الذي هو محلُّه في هذه الآية-، وتَعْدِيته بأداة "إلى" الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام مِن قرينة تدل على أنَّ المرادَ بالنظر المضاف إلى الوجه المُعَدَّى بـ "إلى" خلافُ حقيقته وموضوعه؛ صريح في أنَّ اللَّه سبحانه أراد بذلك نظرَ العين -التي في الوجه- إلى نفس الربِّ جلَّ جلالُه؛ فإنَّ النظر له عِدَّة استعمالات بحسب صِلاته وتَعَدِّيه بنفسه:

فإن عُدِّيَ بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار، كقوله تعالى: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: ١٣].

وإن عُدِّيَ بـ "في" فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ١٨٥].

وإن عُدِّيَ بـ "إلى" فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: {انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} [الأنعام: ٩٩]، فكيف إذا أُضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟!

وأمَّا الأحاديثُ عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة [وهنا شرع المصنف رحمه الله في سرد الأحاديث والآثار الكثيرة الدالة على الرؤية، وقد تجاوزتُها درءًا للإطالة، وسأقتصر على موضع الشاهد منها دون أن أسوقها بتمامها]

- فأمَّا حديث أبي بكر رضي الله عنه مرفوعًا -وهو حديث الشفاعة الطويل- وفيها ((وَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. قَالَ: فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَرَّ سَاجِدًا))١.

وأمَّا حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما ففيه (أَنَّ أُنَاسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ

١حسن. مسند أحمد (١٥)، وحسنه الشيخ حسين أسد رحمه الله في تحقيق مسند أبي يعلى (١/ ٥٦).

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ)؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: (وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ)؟ قَالُوا: لَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا))[١].

[ثم سرد المصنف رحمه الله جملة كبيرة من الأئمة الذين رووا هذه الأحاديث من غير نكير، ثم قال في مقابلهم]: وشهدت الجهمية والفرعونية والرَّافضة والقرامطة والباطنية وفروخ الصابئة والمجوس واليونان بكفر مَنِ اعتقد ذلك! وأنَّه مِن أهل التشبيه والتجسيم، وتابعهم على ذلك كلُّ عدوٍّ للسُّنَّةِ وأهلها، والله ناصرٌ كتابه وسُنَّةَ رسوله ولو كره الكافرون.

وأمَّا حديث صهيب رضي الله عنه؛ ففي صحيح مسلم عنه مرفوعًا ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ

١صحيح البخاري (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣).

وَجَلَّ))١.

وأمَّا حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا؛ ففيه ((فَلْيَنْطَلِقْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ، وَيُمَثَّلُ لَهُمْ أَشْيَاءُ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْطَلِقُ إِلَى الشَّمْسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْطَلِقُ إِلَى الْقَمَرِ، وَإِلَى الْأَوْثَانِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَأَشْبَاهِ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالَ: وَيُمَثَّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عِيسَى شَيْطَانُ عِيسَى، وَيُمَثَّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عُزَيْرًا شَيْطَانُ عُزَيْرٍ، وَيَبْقَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، قَالَ: فَيَتَمَثَّلُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَنْطَلِقُونَ كَمَا انْطَلَقَ النَّاسُ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ إِنَّ لَنَا لَإِلَهًا مَا رَأَيْنَاهُ بَعْدُ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَهُ إِنْ رَأَيْتُمُوهُ؟ فَيَقُولُونَ: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ عَلَامَةً إِذَا رَأَيْنَاهَا عَرَفْنَاهَا، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا هِيَ؟ فَيَقُولُونَ: يَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَيَخِرُّ كُلُّ مَنْ كَانَ بِظَهْرِهِ طَبَقٌ٢، وَيَبْقَى قَوْمٌ ظُهُورُهُمْ كَصَيَاصِيِّ٣ الْبَقَرِ يُرِيدُونَ السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ؛ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ

١صحيح مسلم (١٨١).
٢"ومعنى (الطبق): فقار الظهر. كما في النهاية، ولفظه في المجمع (١٠/ ٣٤١): فيخر كل من كان نظر؛ أي: نظر إلى الله". صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤١٩).
٣قرون البقر.

سَالِمُونَ!))١.

وأمّا حديث أبي موسى رضي الله عنه؛ ففي الصحيحين عنه مرفوعًا: ((جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ؛ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ))٢.

وأمّا حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعًا -وهو حديث ذِكْر الدجال- ففيه: ((وَإِنَّكُم لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا))٣.

وأمّا حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه مرفوعًا -وهو حديث الدعاء المعروف- ففيه: ((وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ))٤.

وأمّا حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا ففيه ((مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا))٥ يخاطبُ جابرًا.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية٦]

١صحيح. المعجم الكبير للطبراني» (٩/ ٣٥٨).. صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩١).
٢صحيح البخاري (٤٨٧٨).
٣صحيح. مسند أحمد (٢٢٧٦٤). صحيح الجامع (٢٤٥٩).
٤صحيح. النسائي (١٣٠٥). صحيح الجامع (١٣٠١).
٥صحيح. ابن ماجه (١٩٠). صحيح الجامع (٧٩٠٥).
٦وعن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَكُلُّنَا يَرَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُخْلِيًا بِهِ؟ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ؟ قَالَ: (يَا أَبَا رَزِينٍ؛ أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مُخْلِيًا بِهِ؟)، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (فَاللهُ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ، وَذَلِكَ آيَةٌ فِي خَلْقِهِ)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٣٠١).

▪ الباب السادس والستون: في تكليمه سبحانه لأهل الجنَّة، وخطابه لهم ومحاضرته إيَّاهم، وسلامه عليهم

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ الله وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ} [آل عمران: ٧٧].

وقال في حقِّ الَّذين يكتمون ما أنزلَ الله من الهُدَى والبيِّنات: {وَلَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [البقرة: ١٧٤].

فلو كان لا يكلِّم عباده المؤمنين؛ لكانوا في ذلك هم وأعداء الله سواء، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنَّه لا يكلمهم فائدةً أصلًا، إذْ تكليمه لعباده عند الفرعونية والمعطِّلة مثلُ أنْ يُقال: يؤاكلهم ويشاربهم، ونحو ذلك! تعالى الله عمَّا يقولون.

وقد أخبر سبحانه أنَّه يسلِّمُ على أهل الجنَّة، وأنَّ ذلك السلام حقيقة، وهو قولٌ مِن ربٍّ رحيم.

وعند الترمذي من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه مرفوعًا ((«مَا مِنْكُمْ

ومعنى قوله: (أَكُلُّنَا يَرَى اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُخْلِيًا بِهِ) أي: "كلكم يراه منفردًا بربه؛ بحيث لا يزاحمه شيء في الرؤية". عون المعبود (١٠/ ٢٤٩).

مِنْ رَجُلٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ))١.

وبالجملة فتأمَّلْ أحاديث الرؤية تجدْ في أكثرها ذِكْرُ التَّكْلِيم.

قال البخاري في صحيحه: "بابُ كلامِ الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنَّة"٢.

وساق فيه عدَّة أحاديث.

فأفضل نعيم أهل الجنَّة رؤيةُ وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لرَوح الجنَّة، وأعلى نعيمها وأفضله، الَّذي ما طابت لأهلها إلَّا به، والله المستعان.

١صحيح. الترمذي (٢٤١٥). صحيح الجامع (٥٧٩٨).
٢في كتاب التوحيد (٦/ ٢٧٣٢).

▪ الباب السابع والستون: في أبدية الجنَّة، وأنها لا تفنى ولا تبيد

هذا مما يُعْلَم بالاضطرار أنَّ الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم أخبر به، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع.

ولا تنافي بين هذا وبين قوله: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٨]، [وفيها عدة أقوال عن السلف والخلف] وهذه الأقوال متقاربة، ويمكن الجمع بينها بأنْ يُقالَ: أخبر سبحانه عن خلودهم في الجنَّة كلَّ وقتٍ إلَّا وقتًا يشاءُ ألَّا يكونوا فيها، وذلك يتناول وقتَ كونهم في الدنيا، وفي البرزخ، وفي موقف القيامة، وعلى الصراط، وكون بعضهم في النَّار مدَّة. وعلى كلِّ تقدير فهذه الآية مِن المتشابه، وقوله تعالى فيها: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} مُحْكم، وكذلك قوله: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤]، وقوله: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: ٣٥]، وقوله: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨]، وقد أكَّدَ الله سبحانه خلود أهل الجنَّة بالتأبيد في عدَّة مواضع مِن القرآن، وأخبر أنَّهم: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى} [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضَمَمْتَه إلى الاستثناء في قوله: {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٧]

تبيَّن لك المراد مِن الآيتين، واستثناء الوقت الَّذي لم يكونوا فيه في الجنَّة مِن مدَّة الخلود كاستثناء الموتة الأولى مِن جملة الموت، فهذه موتةٌ تقدمت على حياتهم الأبدية، وذاك مفارقة للجنَّة تقدَّمت على خلودهم فيها. وبالله التوفيق.

وفي صحيح مسلم مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]))١.

وثبت في الصحيحين مِن حديث أبي سعيد الخدري عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ؛ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا

١صحيح مسلم (٢٨٣٧).

أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ؛ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا)) ١.

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية٢]

١صحيح مسلم (٢٨٤٩).

٢عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَوَّلُ زُمْرَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، مُتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَيَكُونُ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءً، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمْ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمِ الْأَلُوَّةُ الْأَنْجُوجُ [العود الهندي الجيد؛ يتبخر به]، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خُلُقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ؛ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ عَرْضًا، جُرْدٌ مُرْدٌ [الأجرد: هو الذي لا شعر على جسده، والأمرد: هو الذي لم يبلغ سن إنبات شعر لحيته، والمقصود هنا: أنَّ أهل الجنة ليس على وجوههم ولا على أجسادهم شعر، كشعر الرِّجْلين والعانة والإبط، وغيره مما هو شعر زائد]، مُكَحَّلُونَ، بِيضٌ جِعَادٌ، أَزْوَاجُهُمْ الْحُورُ الْعِينُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً [الحلة: إزار ورداء من جنس واحد]، يَرَى مُخَّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالثِّيَابِ مِنْ الْحُسْنِ؛ كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الْأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)، فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ ادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ؟ فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ)، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: (قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٣٨).

▪ فصل

وهذا موضع اختلف فيه المتأخرون على ثلاثة أقوال:

١) أنَّ الجنَّة والنَّار فانِيتَانِ غير أبديَّتين، بل كما هما حَادِثَتَان فهما فانيتان.

٢) إنَّهما باقيتان، دائمتان لا تفنيان أبدًا.

٣) إنَّ الجنَّة باقية أبديَّة، والنار فانية.

[وهذا المبحث مبحث طويل؛ اقتصرتُ فيه على أهم وأوضح ما أورده الإمام ابن القيم رحمه الله فيه -مع أوجه ترجيحه للقول بفناء النار-، وسأضع في الحاشية ما يلزم مِن التعليق على تلك الأوجه أيضًا على وجه الايجاز درءًا للإطالة].

وأمَّا القول الأول؛ فهو قول قاله جهم بن صفوان، إمام المعطلة الجهمية، وليس له فيه سلف قطُّ مِن الصحابة ولا مِن التابعين، ولا أحدٌ مِن أئمة الإسلام، ولا قال به أحدٌ مِن أهل السُّنَّة.

قال تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ} [الرعد: ٣٥]، ويقول أيضًا سبحانه: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} [ص: ٥٤]، ويقول تعالى أيضًا: {مَاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ الله

بَاقٍ} [النحل: ٩٦][١].

والمقصودُ: أنَّ القولَ بفناء الجنَّة والنَّارِ قولٌ مبتدع لم يقله أحدٌ مِن الصحابة ولا التابعين، ولا أحدٌ مِن أئمة المسلمين، والَّذين قالوه إنَّما تلقَّوهُ عن قياسٍ فاسدٍ اشتبه أصلُه على كثيرٍ مِن النَّاسِ فاعتقدوه حقًّا، وبنوا عليه القول بخلق القرآن ونفي الصفات، وقد دلَّ القرآن والسُّنَّة والعقل الصريح على أنَّ كلمات الله وأفعاله لا تتناهى، ولا تنقطع بآخرٍ، ولا تُحدُّ بأوَّل، قال الله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: ١٠٩].

وأمَّا القول الثاني -وهو أبديَّة النار ودوامها-: فقال شيخ الإسلام: "فيها قولان معروفان عن السلف والخلف، والنزاع في ذلك معروف عن التابعين".

قلتُ: ها هنا أقوال سبعة:

---

[١] وقد نقل ابن القيم رحمه الله عن شيخ الإسلام قوله: "وهذا قاله جهم لأصله الَّذي اعتقده: وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام التي استدلُّوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يحل مِن الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم، فرأي الجهم: أنَّ ما يمنع مِن حوادث لا أول لها في الماضي يمنعه في المستقبل، فدوام الفعل ممتنع عنده على الرب تعالى في المستقبل كما هو ممتنع عليه في الماضي".

أحدها: أنَّ مَن دخلها لا يخرج منها أبدًا، بل كل مَن دخلها مخلدٌ فيها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أنَّ أهلها يعذبون فيها مُدَّةً، ثم تنقلب عليهم، وتبقى طبيعةٌ نارية لهم، يتلذَّذون بها لموافقتها لطبيعتهم! وهذا قول إمام الإتحادية ابن عربي الطائي[١].

الثالث: قول مَن يقول: إنَّ أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون. وهذا القول حكاه اليهود للنَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه، فقال تعالى:

{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ

---

[١] قال ابن القيم: "وهذا في طرف؛ والمعتزلة الذين يقولون: لا يجوز على الله أن يُخْلِفَ وعيده، بل يجب عليه تعذيب مَن توعده بالعذاب -في طرف-، فأولئك عندهم لا ينجو مِن النار مَن دخلها أصلًا، وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلًا! والفريقان مخالفان لما عُلِمَ بالاضطرار أنَّ الرسول جاء به، وأخبر به عن الله عزَّ وجلَّ".
قال الشيخ الألباني رحمه الله في مقدمة رسالة "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار" للصنعاني (ص٤٢) تعليقًا على كلام ابن القيم: (ولم يقل في موضع واحد: لا يخلف وعيده)!: "فأقول: قد فاته -عفا الله عنا وعنه- قوله تعالى في (ق: ٢٧ - ٢٩): {قال قرينة ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد، قال لا تختصموا لذي وقد قدمت إليكم بالوعيد، ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد}.
ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عقبه (١٤ / ٤٩٨): (وهذا يقتضي أنه صادق في وعيده أيضا، وأنَّ وعيدَه لا يبدل. وهذا مما احتج به القائلون بأنَّ فساق الملة لا يخرجون مِن النار، وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع، لكنَّ هذه الآية تضعف جواب مَن يقول: إنَّ إخلاف الوعيد جائز! فإنَّ قوله: {ما يبدل القول لدي} بعد قوله: {وقد قدمت إليكم بالوعيد} دليل على أنَّ وعيده لا يبدل كما لا يبدل وعده".

الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) } [البقرة: ٨٠، ٨١].

وقد دلَّ القرآن والسُّنَّة وإجماع الصحابة والتابعين، وأئمة الإسلام على فساد هذا القول، قال تعالى: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٧]، وقال: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [الحج: ٢٢].

الرابع: قول مَن يقول: يخرجون منها وتبقى نارًا على حالها ليس فيها أحدٌ يُعَذَّبُ، حكاه شيخ الإسلام، والقرآن والسُّنَّة أيضًا يردان هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول مَن يقول: بل تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة بعد أنْ لم تكن، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنَّة والنار.

السادس: قول مَن يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادًا، لا يتحركون ولا يحسُّون بألم، وهذا قول أبي الهُذَيل العلَّاف إمام المعتزلة، طَرْدًا لامتناع حوادث لا نهاية لها، والجنَّة والنار عنده سواء في هذا الحكم.

السابع: قول مَن يقول: بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى؛ فإنه جعل لها

أمَدًا تنتهي إليه ثم تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: "وقد نُقِلَ هذا القول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد وغيرهم.

وقد روى عَبْد بن حُمَيد -وهو مِن أجَلِّ علماء الحديث- في تفسيره المشهور: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن قال: قال عمر: (لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج[1]، لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه).

وقال: حدثنا حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون فيه).

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: {لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢٣]، فقد رواه عَبْدٌ -وهو مِن الأئمة الحفاظ وعلماء السُّنَّة- عن هذين الجليلين: سليمان بن حرب، وحجاج بن منهال، كلاهما عن حماد بن سلمة -وحَسْبُك به-، وحماد يرويه عن ثابت وحميد، وكلاهما يرويه عن الحسن، وحسبك بهذا

---

١ هو مَثَلٌ يُضرب للمبالغة في الكَثْرة.

الإسناد جلالة.

والحسن -وإنْ لم يسمع مِن عمر-؛ فإنما رواه عن بعض التابعين، ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لَمَا جزم به وقال: قال عمر بن الخطاب! ولو قُدِّرَ أنه لم يُحْفَظ عن عمر؛ فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار والرَّدِّ، مع أنهم ينكرون على مَن خالف السُّنَّة بدون هذا، فلو كان هذا القول عند هؤلاء الأئمة مِن البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة، لكانوا أول منكر له[١].

---

[١] قال الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على رسالة "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار" للصنعاني (ص٦٦):
"وأقول فيه شيئان: الأول: مِن حيث الرواية؛ فإنه منقطع لنص شيخ الإسلام بأنه لم يسمعه الحسن مِن عمر، واعتذاره بأنه لو لم يصح للحسن عن عمر لَمَا جزم به! يلزم أنْ يجري في كل مقطوع يَجزم به راويه، ولا يقول هذا أئمة الحديث -كما عرفت في قواعد أصول الحديث-، بل الانقطاع عندهم علة والجزم معه تدليس وهو علة أخرى، ولا يقوم بمثل ذلك الاستدلالُ في مسألة فرعية؛ فكيف في مسألة قيل: إنها أكبر مِن الدنيا بأضعاف مضاعفة!
وهذا البخاري -أمير المؤمنين في علم الحديث وأشدهم تحريًا في الصحيح- لم يقل النقادون بأنَّ تعاليقه المجزومة التي أودعها في كتابه الذي سماه (الصحيح) صحيحة! بل فيها الضعيف كما نص عليه ابن حجر في مقدمة (الفتح)،
والحسن البصري معروف عند أئمة هذا الشأن بأنه لا يؤخذ بمراسيله، قال الدارقطني في (السنن) وقد روى عاصم الأحول عن ابن سيرين -وكان عالما بأبي العالية وبالحسن- قال: (لا تأخذوا بمراسيل الحسن ولا أبي العالية؛ فإنهما لا يباليان عمن أخذا عنه). انتهى.
قلت: ثم قال ابن تيمية: (ولو كان كلام عمر هذا غير صحيح لما تداولته الأئمة، ولوجب إنكارهم له لمخالفته الإجماع والكتاب والسُّنَّة)، قلت: يقال: كلام عمر كغيره مِن الأقوال الدالة على خروج الموحدين مِن النار، وهو قول عليه جماهير الأئمة -منهم ابن تيمية-، وستعرف أنه لا يصح أثر عمر إلَّا على تقدير أنه أراد به الموحدين، وأنه يتعين حمله

قال: ولا ريب أنَّ مَنْ قال هذا القول عن عمر ١، ونقله عنه؛ إنما أراد بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها، فأمَّا قوم أصيبوا بذنوبهم؛ فقد علم هؤلاء وغيرهم أنهم يخرجون منها، وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج، ولا قريبًا منه٢.

على ذلك عند شيخ الإسلام نفسه وعند غيره.
والثاني: مِن حيث الدراية؛ فإنه لو ثبت صحته عن عمر لم يدل على المدعى، فإنَّ أصل المدعى هو: فناء النار، وأنَّ لها مدة تنتهي إليها، وليس في أثر عمر هذا إلَّا أنه يخرج أهل النار مِن النار، والخروج لا يكون إلَّا وهي باقية! فإنك لو قلت: لو لبث زيد في الدار كذا وكذا ثم خرج منها لم يدل هذا على فناء الدار لا مطابقة ولا تضمنًا ولا التزامًا، فإنْ قيل: بل هو يدل على فنائها التزامًا لأنه تعالى إنما خلقها ليعذب بها مَن عصاه فبعد خروجهم لم يبق لها حاجة فالحكمة تقتضي فناءها. قلت: هذا دور! فإنه لا يثبت أنَّ الحكمة تقتضي فناءها إلَّا إذا لم يبق فيها أحد ولا يخرج أحد من أهلها إلا بعد فنائها كما تسمع تصريح ابن تيمية بذلك حيث قال: (وأمَّا كون الكفار لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم مِن عذابها ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط؛ فلم يختلف في ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السُّنَّة، وهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية، ولا يخرجون منها مع بقائها البتة) هذا لفظه، وإذا عرفت مراده عرفت أنَّ أثر عمر لا يدل على مدعاه بشيء مِن الدلالات الثابتة؛ فإنه قال: (إنهم يخرجون منها)! وهذا واضح في الخروج منها وهي باقية، فلا بد مِن حمل أثره على معنى صحيح، إذ لا يصح حمله على خروج الكفار عند أحد -لا ابن تيمية كما عرفت، ولا غيره-؛ فإنه لا يقول أحد بخروج الكفار مِن النار، فإنْ صح أثر عمر حُمِل على أنه أراد خروج الموحدين الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم كما دلت عليه الأدلة المعروفة الصحيحة الصريحة التي لا مرية في صحتها".

١تنبيه: أثر عمر هذا -على ضعفه- إنما دلالته على خروج الكفار مِن النار؛ خلافًا للقول الذي استدل له -رحمه الله-، فإنَّ القول السابع هذا إنما هو في فناء النار وليس في خروج أهلها منه!

٢قال الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على رسالة "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار" للصنعاني (ص٧٠): "أقول: ولا يخفى ضعف هذا الرد، لأنَّ كونهم قد علموا ذلك لا يمنع أنْ يؤدوه لِمَن لا يعلمه ويخبروا أنه اعتقادهم، وقد علم في فن البيان أنَّ الإخبار يكون بفائدة الحكم أو لازمها، فعِلْمُ السامعين بالحكم لا يمنع عن التكلم به وإلقائه إليهم، وأمَّا كون عصاة الموحدين لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريبًا منه فمسلم، ولم يقل عمر أنهم يلبثون قدر رمل عالج! بل أتى بقضية شرطية فقال: (لو لبث) أي أنه لو طال لبثهم ذلك القدر لخرجوا، ولا دليل في كلامه أنهم يلبثون ذلك القدر! فعرفت

ولفظ "أهل النار" لا يختص بالموحِّدين! بل هو مختص بمَن عداهم، كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُم أَهْلُهَا؛ فَإِنَّهُم لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَونَ))١.

ولا يناقض هذا قولَه تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا}، وقولَه: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨]، بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق الذي لا يقع خلافُه، لكنْ إذا انقضى أجلُها وفنيتْ كما تفنى الدنيا لم يبقَ نارٌ ولم يبقَ فيها عذابٌ.

قال أرباب هذا القول -في تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي-: عن ابن عباس في قوله تعالى: {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٢٨]. قال: "لا ينبغي لأحد أنْ يَحكم على الله في خلْقِه، ولا ينزلهم جنة ولا نارًا"، قالوا: وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصًّا بأهل

أيضًا أنه غير مانع من حمل أثر عمر على عصاة الموحدين، مع أنه لا يصح حمله على الكفار لأنهم يلبثون أكثر مِن عدد رمل عالج، فقد أخرج الطبراني في (الكبير) من حديث ابن مسعود مرفوعا:(موضوع) (لو قيل لأهل النار: إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا ...) الحديث، ومما سمعت تعين حمل أثر عمر على عصاة الموحدين عند شيخ الإسلام وعند جميع علماء الأنام.
وإذا عرفت هذا؛ طال تعجبك مِن نسبة ابن تيمية القول بفناء النار إلى عمر، واستدلاله لذلك بهذا الأثر -المنقطع رواية- الذي هو بمراحل عن الدلالة مِن حيث الدراية".
١صحيح مسلم (١٨٥) مِن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

القبلة؛ فإنه سبحانه قال: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٨ - ١٢٩]، وأولياء الجن مِن الإنس يدخل فيه الكفار قطعًا؛ فإنهم أحقُّ بموالاتهم مِن عصاة المسلمين، كما قال تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٧]، فالاستثناء وقع في الآية التي أخبرت عن دخول أولياء الشيطان النار، فَمِنْ ها هنا قال ابن عباس: (إنه لا ينبغي لأحد أنْ يحكم على الله في خلْقه).

وقد قال تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا} [النبأ: ٢١ - ٢٣]، قالوا: والأبد: لا يُقدَّر بالأحقاب.

وقد قال ابن مسعود في هذه الآية: (لَيأتينَّ على جهنم زمانٌ ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا)، وعن أبي هريرة مثله، حكاه البغوي عنهما، ثم قال: "ومعناه عند أهل السُّنَّة -إنْ ثبت-: أنه لا يبقى فيها أحد مِن أهل الإيمان".

قالوا: قد ثبت ذلك عن أبي هريرة وابن مسعود وعبد الله بن عمرو، وقد سأل حربٌ إسحاق بن راهويه عن هذه الآية، فقال: سألت إسحاق، قلت: قول الله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٧] فقال: أتتْ هذه الآية على كل وعيد في القرآن.

فصل

والذين قطعوا بدوام النار لهم ست طرق:

أحدها: اعتقاد الإجماع، فكثير مِن الناس يعتقدون أنَّ هذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين لا يختلفون فيه، وأنَّ الاختلاف فيه حادث وهو مِن أقوال أهل البدع.

الطريق الثاني: أنَّ القرآن دلَّ على ذلك دلالة قطعية؛ فإنه سبحانه وتعالى أخبر: أنه عذاب مقيم، وأنه لا يُفَتَّر عنهم، وأنه لن يزيدهم إلا عذابًا، وأنهم خالدين فيها أبدًا، وما هم بخارجين مِن النار، وما هم منها بمخرجين، وأنَّ الله حرَّم الجنَّةَ على الكافرين، وأنهم لا يدخلون الجنَّة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط، وأنهم لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّف عنهم مِن عذابها، وأنَّ عذابها كان غرامًا، أي: مقيمًا لازمًا. قالوا: وهذا يفيد القطع بدوامه

واستمراره.

الطريق الثالث: أنَّ السُّنَّة المستفيضة أخبرتْ بخروج مَنْ في قلبه مثقال ذرة مِنْ إيمانٍ دون الكفار، وأحاديث الشفاعة مِن أولها إلى آخرها صريحة بخروج عصاة الموحدين مِن النار، وأنَّ هذا حكم مختص بهم؛ فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان!

الطريق الرابع: أنَّ الرسول وقَّفْنَا على ذلك وعَلِمْنَاهُ مِن دينه بالضرورة مِن غير حاجة بنا إلى نقلٍ معينٍ؛ كما عَلِمْنا مِن دينه دوام الجنَّة وعدم فنائها.

الطريق الخامس: أنَّ عقائد السلف وأهل السُّنَّة مصرحة بأنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان، وأنهما لا تفنيان، بل هما دائمتان، وإنما يذكرون فناءهما عن أهل البدع.

الطريق السادس: أنَّ العقلَ يقضي بخلود الكفار في النَّارِ

[أوجه رد القائلين بالفناء على ذلك]

قال أصحاب الفناء: بالكلام على هذه الطرق يَبِيْنُ الصوابُ في هذه المسألة.

فأمَّا الطريق الأول: فالإجماع الذي ادعيتموه غير معلوم، وإنما يَظن الإجماعَ في هذه المسألة مَن لم يعرف النزاع -وقد عُرِفَ النزاعُ فيها قديمًا وحديثًا-،

بل لو كُلِّفَ مُدَّعِي الإجماع أنْ يَنقل عن عشرة مِن الصحابة فما دونهم إلى الواحد أنَّه قال: إنَّ النار لا تفنى أبدًا؛ لم يجد إلى ذلك سبيلًا، ونحن قد نقلنا عنهم التصريح بخلاف ذلك، فأوْجِدوا لنا عن واحد منهم خلاف ذلك، بل التابعون حكي عنهم هذا وهذا[١].

١قال الشيخ الألباني رحمه الله في مقدمة رسالة "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار" للصنعاني (ص١٧): "ونحوه قول ابن حزم في الملل والنحل: اتفقت فرق الأمة كلها على أنه لا فناء للجنة ولا لنعيمها، ولا للنار ولا لعذابها إلَّا جهم بن صفوان.
وفي العقيدة الطحاوية: والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان.
ثم رأيت ابن حزم قد أورد المسألة أيضا في كتابه (مراتب الإجماع) فقال: وأنَّ النار حق؛ وأنها دار عذاب أبدًا، لا تفنى ولا يفنى أهلها أبدًا بلا نهاية.
وأقره شيخ الإسلام أحمد بن تيمية خلافًا لغيرها مِن المسائل التي تعقبه فيها، ومِن العجيب أنَّ هذا القول بعدم فنائها هو مما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله -كما يدل عليه ظاهر كلامه في كتابه (الروح) (ص ٣٤ - طبعة صبيح)-، بل ذلك ما صرح به في بعضه كتبه!
- قال في (الكافية الشافية):
ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيز العدم
هي: العرش والكرسي ونار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم.
- وأصرح منه ما كنت نقلته عنه في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) في كتابه (الوابل الصيب) (ص ٢٦) قال ما نصه:
وأمَّا النار؛ فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال والمآكل والمشارب ودار الخبيثين، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعضه ثم يجعله في جهنم مع أهله، فليس فيها إلَّا خبي،. ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب؛ كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض -وهاتان الداران لا تفنيان-، ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى، وهي دار العصاة؛ فإنه لا يبقى في جهنم مِن عصاة الموحدين أحد، فإنهم إذا عذبوا -بقدر جزائهم- أخرجوا مِن النار فأدخلوا الجنة، ولا يبقى إلَّا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض.
- تصريحه في مقدمة كتابه العظيم: (زاد المعاد في هدى خير العباد) بأنَّ المشرك لا تطهره النار، ولو أخرج منها عاد خبيثًا كما كان، وقد حرم الله عليه الجنة".

قالوا: وأمَّا الطريق الثاني -وهو دلالة القرآن على بقاء النار وعدم فنائها-؛ فأين في القرآن دليل واحد يدلُّ على ذلك؟! نعم، الذي دلَّ عليه القرآن أنَّ الكفار خالدين في النار أبدًا، وأنهم غير خارجين منها، وأنهم لا يُفَتَّر عنهم عذابها، وأنهم لا يموتون فيها، وأنَّ عذابهم فيها مقيم، وأنه غرام لازم لهم، وهذا كله مما لا نزاع فيه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وليس هذا مورد النزاع، وإنما النزاع في أمر آخر، وهو: أنَّه هل النار أبدية أو مما كُتِبَ عليها الفناء؟ وأمَّا كون الكفار لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم مِن عذابها، ولا يُقْضَى عليهم فيموتوا، ولا يدخلون الجنَّة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط؛ فلم يختلف في ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السُّنَّة، وإنما خالف في ذلك مَن قد حكينا أقوالهم من اليهود والاتحادية، وبعض أهل البدع. وهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية، ولا يخرجون منها مع بقائها البتة، كما يخرج أهل التوحيد منها مع بقائها. فالفرق بين مَن يخرج مِن الحبس -وهو حبس على حاله- وبين مَن يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه[1].

---

[1] قال الشيخ الألباني رحمه الله في مقدمة رسالة "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار" للصنعاني (ص٢٠) تعليقًا على حديث ذبح الموت بلفظ ((فيؤمر؛ فيذبح على

قالوا: وأمَّا الطريق الثالث: وهو مجيء السُّنَّة المستفيضة بخروج أهل الكبائر مِن النار دون أهل الشرك؛ فهي حق لا شك فيه، وهي إنما تدل على ما قلناه مِن خروج الموحِّدين منها، وهي دار عذاب لم تَفْنَ، ويبقى المشركون فيها ما دامت باقية، والنصوص دلت على هذا وعلى هذا.

قالوا: وأمَّا الطريق الرابع: وهو أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقفنا على ذلك ضرورة؛ فلا ريب أنَّه مِن المعلوم مِن دينه بالضرورة أنَّ الكفار باقون فيها ما دامت باقية، هذا معلوم مِن دينه بالضرورة، وأمَّا كونها أبدية لا انتهاء لها ولا تفنى كالجنَّة؛ فأين في القرآن والسُّنَّة دليل واحد يدل على ذلك؟

قالوا: وأمَّا الطريق الخامس: وهو أنَّ في عقائد أهل السُّنَّة أنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا؛ فلا ريب أنَّ القول بفنائهما قول أهل البدع مِن الجهيمية والمعتزلة، وهذا القول لم يقله أحد مِن الصحابة ولا التابعين، ولا أحد مِن أئمة المسلمين، وأمَّا فناء النار وحدها فقد أوجدناكم مَن قال به مِن

الصراط، ثم يقال للفريقين كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيها أبدًا)): " قلتُ: ففي الحديث دلالة قاطعة على بطلان دعوى فناء النار، لأنه جعلها كالجنة مِن حيث خلود أهلها فيما هم فيه مِن العذاب إلى الأبد، فكما أنَّ الجنة لا تفنى أبدًا؛ فكذلك النار لا تفنى أبدًا".

الصحابة، وتفريقهم بين الجنَّة والنار؛ فكيف يكون القول به مِن أقوال أهل البدع مع أنَّه لا يُعْرَف عن أحد مِن أهل البدع التفريق بين الدارين؟! فقولكم: إنه مِن أقوال أهل البدع كلامُ مَن لا خِبْرَة له بمقالات بني آدم، وآرائهم واختلافهم، ومَن ذكر منهم أنَّ النار لا تفنى أبدًا؛ فإنما قاله لظنه أنَّ بعض أهل البدع قال بفنائها، ولم تبلغه تلك الآثار التي تقدم ذكرها.

قالوا: وأمَّا الطريق السادس -وهو حكم العقل بتخليد أهل النار فيها-؛ فإخبار عن العقل بما ليس عنده! فإنَّ المسألة مِن المسائل التي لا تعلم إلَّا بخبر الصادق، وأمَّا أصل الثواب والعقاب؛ فهل يعلم بالعقل مع السمع، أو لا يُعْلم إلَّا بالسمع وحده؟ ففيه قولان لِنظَّار المسلمين مِن أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، والصحيح أنَّ العقل دلَّ على المعاد والثواب والعقاب إجمالًا، وأمَّا تفصيله فلا يُعْلَم إلَّا بالسمع، ودوام الثواب والعقاب مما لا يدلُّ عليه العقل بمجرده، وإنما عُلِم بالسمع، وقد دلَّ السمع دلالة قاطعة على دوام ثواب المطيعين، وأمَّا عقاب العصاة فقد دلَّ السمع أيضًا دلالة قاطعة على انقطاعه في حق الموحِّدين، وأمَّا دوامه وانقطاعه في حق الكفار؛ فهذا مُعْتَرَك النِّزال، فمَن كان السمع مِن جانبه فهو أسعد بالصواب. وبالله

التوفيق.

[ثم شرع المصنف رحمه الله في ذكر الفرق بين دوام الجنَّة والنار شرعًا وعقلًا، وقد اختصرته درءًا للإطالة]

فإنْ قيل: إلى أين انتهى قدمُكم في هذه المسألة العظيمة الشأن -التي هي أكبر مِن الدنيا بأضعاف مضاعفة-؟ قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧]١، وإلى ها هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن

١قال الشيخ الألباني رحمه الله في مقدمة رسالة "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار" للصنعاني (ص٢٤) تعليقًا على كلام شيخ الإسلام (ولو قُدِّرَ عذاب لا آخر له؛ لم يكن هناك رحمة البتة)!: "ويا سبحان الله! أين هو مِن مثل قوله تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} [الأعراف / ١٥٦] وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم -صحيح-: ((إنَّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)) . أخرجه الشيخان، وكذا أحمد والحاكم وصححه مِن طرق عن أبي هريرة بلفظ: ((فيكملها مائة؛ رحمة لأوليائه يوم القيامة)) وله بعض الشواهد خرجتها معه في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) (رقم ١٦٣٤).
فالآية الكريمة والحديث الشريف صريحان في أنَّ الرحمة إنما هي للذين يستحقونها مِن المؤمنين، كلما كان المؤمن لله أتقى كلما كان بها أحظى، وليس الأمر كما يرجو بعض المهابيل مِن الذين يترنمون بقول شاعرهم البوصيري: (لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم)!! كيف هذا وربنا يقول: {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم} [التوبة / ٧١]، ويقول: {إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} [البقرة / ٢١٨]، ولذلك كان مِن دعاء الملائكة الذين يحملون العرش: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم} [غافر / ٧] ، فكل مَن وقاه الله تبارك وتعالى عذاب الجحيم فهو منغمس في رحمة الله يومئذ، كما هو صريح قوله عزَّ وجلَّ: {فأمَّا الذين اسودت وجوههم أكفرت بعد إيمانكم

أبي طالب رضي الله عنه فيها، حيث ذكر دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلِ النارِ النارَ، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء، وقال: (ثمَّ يفعل الله بعد ذلك ما يشاء)، بل وإلى ها هنا انتهت أقدام الخلائق، وما ذكرنا في هذه المسألة –بل في الكتاب مِن صواب– فمِن الله سبحانه، وهو المَانُّ به، وما كان مِن خطأٍ فمِنِّي ومِن

فذقوا العذاب بما كنتن تكفرون، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} [آل عمران / ١٠٦ و١٠٧]، فكيف يقول ابن تيمية: (ولو قُدِّرَ عذاب لا آخر له؛ لم يكن هناك رحمة البتة)!! فكأنَّ الرحمة عنده لا تتحقق إلَّا بشمولها للكفار المعاندين الطاغين!! أليس هذا مِن أكبر الأدلة على خطأ ابن تيمية وبعده -هو ومَن تبعه- عن الصواب في هذه المسألة الخطيرة؟! فغفرانك اللهم.

ولعل ذلك كان منه إبان طلبه للعلم وقبل توسعه في دراسة الكتاب والسُّنَّة وتضلعه بمعرفة الأدلة الشرعية في الوقت الذي كان يحسن الظن بابن عربي الصوفي القائل بأنَّ عذاب الكفار في النار لا يستمر بل ينقلب عليهم إلى عذوبة يتلذذون بها!! كما في (حادي الأرواح) (٢ / ١٦٨)، فلمَّا تبين له حاله رجع عنه كما تحدث بذلك هو نفسه، فقال كما في (مجموع الفتاوى) (٢ / ٤٦٤ - ٤٦٥) : (وإنما كنت قديما ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه لِمَا رأيت في كتبه مِن الفوائد، مثل كلامه في كثير مِن (الفتوحات) (والدرة الفاخرة) و (مطالع النجوم) ونحو ذلك ولم نكن بعد أطلعنا على حقيقة مقصودة ولم نطالع (الفصوص) ونحوه ...)".

وقال الشيخ الألباني رحمه الله في موضع بعده (ص ٣٢): " وإنَّ مما يمنع توجيه الطعن في ابن تيمية لقوله بفناء النار -علاوة على ما ذكرنا آنفًا- أنَّ له قولًا آخر في المسألة وهو عدم فنائها كما سبق بيانه بالنقل عنه، وإذا كنا لا نعلم أيَّ القولين هو المتأخر؛ فمِن البدهي أنَّ الطاعن لا بد له مِن الجزم بأنه هو الأول، ودون هذا خرط القتاد، وأمَّا نحن؛ فإنَّ حسن الظن -الذي أمرنا به- يقتضينا بأنْ نقول: لعله القول الآخِر لأنه موافق للإجماع الذي نقله هو نفسه -فضلًا عن غيره كما تقدم-، وقد يؤيد هذا أنَّ ابن القيم نقله أيضا كما سبق في قصيدته (الكافية الشافية)، فالظاهر أنه مات على ذلك، لأنها قرئت عليه في آخر حياته، فقد ترجمه الحافظ ابن رجب الحنبلي في (طبقاته) وذكر في آخرها ما يشعرنا بذلك فقال: (٢ / ٤٤٨) : (ولازمت مجالسه قبل موته أزيد مِن سنة، وسمعتُ عليه قصيدته النونية الطويلة في السُّنَّة وأشياء مِن تصانيفه وغيرها).

أقول: فإذا صح ظننا هذا؛ فالحمد لله، وإلَّا فأسوأ ما يمكن أنْ يقال: إنه خطأ مغفور لهما بإذن الله تعالى لأنه صدر عن اجتهاد صادق منهما، ومعلوم أنَّ المجتهد مأجور ولو أخطأ".

الشيطان، والله ورسوله بريء منه، وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده.

والله أعلم.

▪ الباب الثامن والستون: في ذكر آخر أهل الجنَّة دخولًا إليها

في الصحيحين مِن حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا[١]، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا -أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا-، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي -أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي- وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟!)) فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يُقَالُ: ذَلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً))[٢].

وفي صحيح مسلم مِن حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا. رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا. وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا،

١"وَرَأَيْت فِي بعض النّسخ: كبواً -بِفَتْح الْكَاف-". عمدة القاري (٢٣/ ١٣٠).
٢صحيح البخاري (٦٢٠٢).

كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَهُنَا))! فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُ))١.

وفي صحيح مسلم مِن حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا ((آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ؛ فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو ٢ مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِيَ اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ؛ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا! فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا

١صحيح مسلم (٣١٤).
٢"معناه: يسقط على وجهه". شرح النووي على مسلم (٣/ ٤٢).

تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ؛ أَدْخِلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِينِي [1] مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟)، فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: (مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ)) [2].

---

[1] "أي: ما يقطع مسألتك لي ويرضيك؟ يقال: صريتُ الشيء إذا قطعته، وصريتُ الماء: إذا جمعته". الإفصاح (٢/ ٩٧).

[2] صحيح مسلم (٣١٠).

وعند مسلم من حديث المغيرة ((فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا؛ فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧] الْآيَةَ))[١].

١صحيح مسلم (١٨٩).

▪ الباب التاسع والستون: وهو بابٌ جامع فيه فصول منثورة لم تُذْكر فيما تقدم مِن الأبواب

- فصل: في لسان[1] أهل الجنَّة

[عند الطبراني في الكبير مِن حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه مرفوعًا ((مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا -وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ- إِلَّا بُعِثَ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ، وصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلَبِ أَيُّوبَ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عُظِّمُوا وَفُخِّمُوا كَالْجِبَالِ))] [2].

- فصل: في احتجاج الجنَّة والنَّارِ

في الصحيحين مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ! وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ؟! قَالَ اللهُ لِلْجَنَّةِ: إِنَّمَا أَنْتِ

---

[1] أورد له المصنف رحمه الله حديث ابن أبي الدنيا الذي نقلته إلى الحاشية هنا.
[2] حسن. الطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٠). الصحيحة (٢٥١٢).
وقد أورد المصنف رحمه الله في الأصل حديث ابن أبي الدنيا مِن رواية أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ عَلَى طُولِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِتُّونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الْمَلَكِ، عَلَى حُسْنِ يُوسُفَ، عَلَى مِيلَادِ عِيسَى ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَعَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُونَ) كما في صفة الجنة لابن أبي الدنيا (٢١٠)، ولفظه قريب لما أثبتناه -ولكنْ مما علمنا صحته-.

رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا النَّارُ؛ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ تَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ؛ فَإِنَّ اللهَ يُنْشِئُ لَهَا خلْقًا))١.

- فصل: في أنَّ الجنَّة يبقى فيها فضل فينشئ الله لها خلقًا دون النَّار

في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا ((لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؛ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ))٢٣.

١صحيح مسلم (٢٨٤٧).
٢صحيح مسلم (٢٨٤٨).
٣قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وأمَّا اللَّفظُ الَّذي وقع في صحيح البخاري في حديث أبي هريرة: ((وأنَّه ينشئ للنَّار مَن يشاء فيُلْقى فيها فتقول: {هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق: ٣٠]}! فغلط مِن بعض الرواة، انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة ونصُّ القرآن يردُّه؛ فإنَّ الله سبحانه أخبر أنَّهُ يملأ جهنَّم مِن إبليس وأتباعه، وأنَّه لا يعذِّب إلَّا مَن قامت عليه حُجَّتُه وكذَّب رُسُلَهُ، قال تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِنْ شَيْءٍ} [الملك: ٨ - ٩] ولا يظلم الله أحدًا مِن خلْقِه".

- فصل: في امتناع النوم على أهل الجنَّة

عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ))١.

- فصل: في ارتقاء العبد -وهو في الجنَّة- مِن درجةٍ إلى درجةٍ أعلى منها

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ))٢.

- فصل: في إلحاق ذُرِّية المؤمن به في الدَّرجة وإنْ لم يعملوا عملَه

قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١].

عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا ((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ فِي دَرَجَتِهِ وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ لِيُقِرَّ بِهِمْ عَيْنَهُ)، ثُمَّ قَرَأَ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ} [الطور: ٢١] الآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: (وَمَا نَقَصْنَا الآبَاءَ بِمَا أَعْطَيْنَا الْبَنِينَ))٣.

---

١ صحيح. الطبراني في الأوسط (٩١٩). الصحيحة (١٠٨٧).
٢صحيح. ابن ماجه (٣٦٦٠) الصحيحة (١٥٩٨).
٣صحيح. البزار (٢٢٦٠). الصحيحة (٢٤٩٠).

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية؛ هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبنيٌّ على أنَّ قوله: {بِإِيمَانٍ} حالٌ مِن الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين؟

قلتُ: واختصاص الذُّرية ها هنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصِّغار؛ فإنَّ أطفال كلِّ رجلٍ وذرِّيته معه في درجته، والله أعلم.

- فصل: في أنَّ الجنَّة تتكلم

قد تقدم قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((احْتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ)).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه موقوفًا (خَلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْجَنَّةَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَهَا، وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: ١]، فَدَخَلَتْهَا الْمَلائِكَةُ فَقَالَتْ: طُوبَاكِ؛ مَنْزِلَ الْمُلُوكِ)١.

- فصل: في أن الجنَّة تزداد حُسْنًا على الدوام

عن كعب قال: ((مَا نَظَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْجَنَّةِ قَطُّ إِلَّا قَالَ: طِيبِي لِأَهْلِكِ، قَالَ:

١صحيح موقوف -وهو في حكم المرفوع-، رواه البزار (٣٥٠٧). الصحيحة (٢٦٦٢).

فَزَادَتْ طِيبًا عَلَى مَا كَانَتْ حَتَّى يَدْخُلَهَا أَهْلُهَا))١.

- فصل: في أن الحور العين يطلبن أزواجَهن أكثر مما يطلبهنَّ أزواجُهنّ

ذكر ابن أبي الدنيا عن أبي سليمان الداراني قال: "كان شاب بالعراق يتعبد، فخرج مع رفيق له إلى مكة، فكان إذا نزلوا فهو يصلي، وإنْ أكلوا فهو صائم، فصبر عليه رفيقه ذاهبًا وجائيًا، فلما أراد أنْ يفارقهُ، قال له: يا أخي؛ أخبرني ما الذي هَيَّجَك إلى ما رأيت؟ قال: رأيت في النوم قصرًا مِن قصور الجنَّة، وإذا لبنة مِن فضة ولبنة ذهب، فلما تم البناء إذا شرفة مِن زبرجد، وشرفة مِن ياقوت، وبينهما حوراء مِن حور العين مرْخِيَّة شعرها، عليها ثوب مِن فضة ينثني معها كلما تَثَّنتْ، فقالت: جُدَّ إلى الله في طلبي؛ فقد -والله- جددت إليه في طلبكَ. فهذا الذي تراه في طلبها".

- فصل: في ذبح الموت بين الجنَّة والنار

قال الله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩].

وفي الصحيحين مِن حديث أبي سعيد الخدري عن النَّبِيِّ صلَّى الله عليه

١صفة الجنة لأبي نعيم (٢١).

وسلَّم قال: ((يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ؛ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ. قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ؛ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩] وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا))١.

وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاينة الفريقين ذلك؛ حقيقةٌ لا خيال ولا تمثيل -كما أخطأ فيه بعض النَّاس خطأً قبيحًا- وقال: الموت عَرَض، والعرض لا يتجسَّم فضْلًا عن أنْ يُذبح! وهذا لا يصحُّ؛ فإنَّ الله سبحانه ينشئ مِن الموت صورة كبش يذبح، كما ينشئ مِن الأعمال صورًا مُعَاينة يُثَابُ بها ويعاقب، والله تعالى ينشئ مِن الأعراض أجسامًا تكون الأَعراض مادَّةً لها، وينشئ مِن الأجسام أعراضًا، كما ينشئ سبحانه مِن الأعراض أعراضًا، ومِن الأجسام أجسامًا.

١صحيح مسلم (٢٨٤٩).

فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرَّب تعالى، ولا يستلزم جمعًا بين النقيضين، ولا شيئًا من المُحَال! وكما في الصحيح عنه: ((تَجِيءُ البَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ يَومَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ))١ الحديث، فهذه هي القراءة يُنْشِئُها الله سبحانه غمامتين.

وكذلك قوله في الحديث الآخر: ((إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ: التَّسْبِيحَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّحْمِيدَ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ -أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ- مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ؟))٢.

وكذلك قوله في حديث عذاب القبر ونعيمه للصورة التي يراها: "فيقول: مَن أنتَ؟ فيقولُ: أنا عملك الصَّالح، وأنا عملك السيئ"٣.

وهذا حقيقة لا خيال؛ ولكنَّ الله سبحانه أنشأ له مِن عمله صورةً حسنة وصورةً قبيحة، وهل النور الَّذي يُقْسَم بين المؤمنين يومَ القيامة إلَّا نفس إيمانهم؟! أنشأ الله سبحانه منه نورًا يسعى بين أيديهم٤، فهذا أمرٌ معقولٌ لو

١صحيح مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا.
٢صحيح. ابن ماجه (٣٨٠٩) من حديث النعمان رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الترغيب (١٥٦٨).
٣صحيح. مسند أحمد (١٨٦١٤) من حديث البراء رضي الله عنه مرفوعًا.
٤يشير إلى مثل قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: ١٢].

لم يرد به النص، فورود النص به مِن باب تطابق السمع والعقل.

- فصل: في ارتفاع العبادات في الجنَّة إلَّا عبادة الذكر فهي دائمة

في صحيح مسلم مِن حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا ((إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ)، قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: (جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ))[١].

- فصل: في تذاكر أهل الجنَّة ما كان بينهم في دار الدنيا

قال تعالى: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} [الصافات: ٥٠ – ٥١] الآيات، وقد تقدم الكلام عليها.

وقال: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: ٢٥ – ٢٧].

١صحيح مسلم (٢٨٣٥).

الباب السبعون: في ذكر المستحق لهذه البشرى دون غيره[1]

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٢ - ٦٤] [2].

وهذا في القرآن كثير، مداره على ثلاث قواعد: إيمان، وتقوى، وعمل خالص للَّه على موافقة السُّنَّة، فأهل هذه الأصول الثلاثة هم أهل البشرى دون مَنْ عَدَاهم مِن سائر الخلق، وعليها دارت بشارات القرآن والسُّنَّة جميعها، وهي تجتمع في أصلين: إخلاص في طاعة الله، وإحسان إلى خلْقِه، وضدها يجتمع في الذين يراؤون ويمنعون الماعون، ويرجع إلى خصلة واحدة؛ وهي موافقة الرب سبحانه وتعالى في محابِّه، ولا طريق إلى ذلك إلَّا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

---

[1] يراجع لزومًا الباب التاسع والعشرون لما فيه من المشابهة لهذا الباب.

[2] ذكر هنا المصنف جملة واسعة من النصوص الدالة على استحقاق هذه البشرى، وجملتها تدور حول الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وقد اختصرتها درءًا للإطالة.

وأمَّا الأعمال التي هي تفاصيل هذا الأصل، فهي: ((بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ))١، وبين هاتين الشعبتين سائر الشُّعب التي مرجعها إلى تصديق الرسول في كل ما أخبر به، وطاعته في جميع ما أمر به إيجابًا واستحبابًا، كالإيمان بأسماء الرب وصفاته وأفعاله مِن غير تحريف ولا تعطيل، ومِن غير تكييف ولا تمثيل، بل كما قال الشافعي رحمه الله: "الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلْقُه"٢.

وقد ذكرنا في أول الكتاب جملة مقالات أهل السُّنَّة والحديث التي أجمعوا عليها، كما حكاه الأشعري عنهم، ونحن نحكي إجماعهم، كما حكاه حرب - صاحب الإمام أحمد - عنهم بلفظه، في "مسائله" المشهورة [ثم سردها رحمه الله، وقد اقتصرت على بعض منها مما له ارتباط وثيق بمادة هذا الكتاب درءًا للإطالة]، وفيها:

"والشفاعة يوم القيامة حق، يشفع قومٌ في قوم؛ فلا يصيرون إلى النَّار، ويخرج قومًا مِن النَّار بعدما دخلوها ولبثوا فيها ما شاء الله، ثم يخرجهم مِن

١صحيح مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
٢انظر: كتاب "الرسالة" له (ص: ١).

النَّار، وقوم يخلدون فيها أبدًا، وهم أهل الشرك والتكذيب، والجحود والكفر بالله عزَّ وجلَّ.

ويُذبح الموت يوم القيامة بين الجنَّة والنَّار.

وقد خلقت الجنَّة وما فيها، وخلقت النَّار وما فيها، خلقهما الله عزَّ وجلَّ، وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدًا.

فإنِ احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨]، وبنحو هذا مِن متشابه القرآن.

قيل له: كل شيء مما كُتب عليه الفناء والهلاك هالك، والجنَّة والنَّار خلقهما للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما مِن الآخرة لا مِن الدنيا.

والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة، ولا أبدًا؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقهنَّ للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت.

فمَن قال خلاف هذا فهو مبتدع ضل عن سواء السبيل".

وفيها: "وينظر إلى وجهه أهل الجنَّة، ويرونه[١] فيكرمهم، ويتجلى لهم، ويُعْرَضُ عليه العباد يوم القيامة، ويتولى حسابهم بنفسه، لا يلي ذلك غيرُه عزَّ

---

[١] في المسائل "ويزورونه". تحقيق طبعة دار عطاءات العلم.

وجلَّ".

[وللمزيد مما جاء في هذا الباب؛ انظر الحاشية١]

١وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ؛ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ؛ نَامَ طَالِبُهَا)). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٣/ ٢٣٧).

▪ فصل: ونختم هذا الكتاب بما ابتدأناه به أوَّلًا، وهو خاتمة دعوى أهل الجنَّة

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ٩ - ١٠].

قال حجاج: عن ابن جريج: أُخبِرْتُ أنَّ قوله: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهمَّ} قال: "إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم -وذلك دعواهم-، فيأتيهم الملك بما اشتهوا فيُسلِّم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله تعالى: {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}، قال: فإذا أكلوا حمدوا ربهم، فذلك قوله تعالى: {وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}"[١].

ومعنى هذه الكلمة "سبحانك" تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به.

فأخبر تعالى عن أوَّل دعواهم إذا استدعوا شيئًا قالوا: "سبحان الله"، وعن آخر دعواهم عندما يحصل لهم، وهو قولهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}،

١أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٨٩).

ومعنى الآية أعمُّ مِن ذلك، والدعوى مثل الدعاء، والدعاءُ يرادُ به الثناء، ويراد به المسألة، وفي الحديث: ((أَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ))[1].

فالدعاء ها هنا: دُعاءُ ثناءٍ يُلْهَمَه أهل الجنَّة، فأخبر سبحانه عن أوَّله وآخره، فأوَّله تسبيحٌ، وآخره حمدٌ يُلْهمونهما كما يُلْهَم النَّفَس، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ التكاليف في الجنَّة تسقط عنهم، ولا تبقى عبادتهم إلَّا هذه الدعوى التي يُلْهَمُونها.

وقد دلَّ الحديث الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كإلهام النَّفَسِ؛ فلا تختص الدعوى المذكورة بوقتِ إرادة الشيء! وهذا كما أنه الأليق بمعنى الآية؛ فهو الأليق بحالهم.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

[قال مختصرُه -العبد الفقير أبو عبد الله؛ خلدون بن محمود بن نغوي آل حقوي:

١حسن. الترمذي (٣٣٨٣) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا. صحيح الجامع (١١٠٤).

تم بحمده تعالى بتاريخ ٢٥/ ١١/ ١٤٤٣ هـ، ونسأل الله تعالى المزيد مِن التوفيق والسداد، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين].